دوروثي براند

استيقظ وعش ..

ترجمة

عبد المنعم الزيادي

تقديم ومراجعة

حازم خالد

الكتاب:استيقظ وعش ..

الكاتبة : دوروثي براند

ترجمة:عبد المنعم الزيادي

تقديم ومراجعة: حازم خالد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

استيقظ وعش .. / ترجمة: عبد المنعم الزيادي, تقديم ومراجعة: حازم خالد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١١٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٠١٩ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٩٥٩٤ / ٢٠٢٠

استيقظ وعش ..





تقديم

هل يفشل الإنسان بإرادته؟

تمثل الكاتبة الأمريكية "دوروثي براند" (١٨٩٣–١٩٤٨) ظاهرة استثنائية في الكتابة، رغم أن عدد كتبها المنشورة لم يزد على ثلاثة، وهو عدد قليل حقًا لكنه كبير القيمة والأثر، وقد صدرت هذه الكتب في ثلاثة مجالات مختلفة، وعبر ثلاثة سنوات متتالية، بعدها توقفت عن الكتابة واستغرقها العمل الصحفي، فضلًا عن إدارة مجلة أميريكان ريفيوالتي تولتها ابتداء من العام ١٩٣٦ وحتى وفاتها في ١٩٤٨.

ولدت دوروثي براند في شيكاغو، ودرست في جامعتها، وما إن تخرجت حتى عملت بالصحافة، وتنقلت بين صحف عدة في شيكاغو، فلما ذاع صيتها انتقلت إلى نيويورك حيث عملت في مجلة (أميريكان مير كوري)، وفي عام ١٩٣٤ أصدرت أول كتبها (أن تصبح كاتبًا)، وفيه قدمت للشباب والمبتدئين خلاصة تجربتها ككاتبة، وكانت تلك الخلاصات من الأهمية والفائدة بحيث أبقت الكتاب مقروءًا، ولا زال يطبع حتى اليوم، وفي العام التالي ١٩٣٥ أصدرت روايتها الوحيدة (امرأة فائقة الجمال)، ولم تحقق الرواية نجاحًا يدفعها لمعاودة التجربة؛ ونتيجة لذلك استشعرت الفشل لكنها قاومته، ورفضت أن تستمر كما وصفت نفسها إنسانة فاشلة، ونصحت نفسها والقراء بمقاومة تلك المشاعر السلبية المحبطة في

كتابها الثالث والأخير (استيقظ وعش)، الذي كان أكثر الكتب الأمريكية مبيعًا، إذ حقق في عام صدوره ١٩٣٦ مبيعات وصلت إلى مليوني نسخة، مما دفع إحدى شركات الإنتاج السينمائي إلى إعداد سيناريو فيلم عن الكتاب عرض في عام ١٩٣٧ بنفس الاسم (استيقظ وعش)، ولا زال هذا الكتاب ينشر حتى اليوم وبعشرات اللغات التي ترجم إليها، ومنها العربية، وقد نقله إلى العربية الأستاذ (عبد المنعم الزيادي)، الذي أرفد المكتبة العربية بالعشرات من الكتب المهمة خصوصًا في مجال التنمية البشرية، وكان من أوائل المترجمين الذين فطنوا مبكرًا لأهمية هذا النوع من الدراسات.

وفي الفصول الاثنتي عشرة التي تكون كتابها (استيقظ وعش) حاولت دوروثي براند أن تنقل خبرتها الطويلة إلى القراء، وخصوصًا في المجال الذي أطلقت عليه اسم (فن تحقيق الأهداف وإصابة النجاح) وبتعبير آخر فن مقاومة الفشل، من خلال أساليب اتبعتها في حياتها العملية، وكانت النتيجة كما قالت: وجدت نفسها تفعل ما كان يلوح لها من قبل مستحيلًا فى سهولة ويسر، وجدت العوائق التي كانت تبدو عصية التخطي تذوب كذوبان الجليد، رأت قناع الجبن والخجل والتردد الذي قيدها سنوات طويلة يسقط منها كسقوط القيد الحديدي متى فتح قيده.

تقول المؤلفة في مقدمة كتابها إن فكرته جاءتها من جملة قرأتها في كتاب (الشخصية الإنسانية) لمايرز بريجز، "تضمنت من الإلهام والإيحاء ما جعلني أطوي الكتاب جانبًا؛ لأتدبر ما انطوت عليه من آراء وأفكار،

وحين عدت إلى الكتاب مرة أخرى كنت قد خلقت خلقًا جديدًا، كل اتجاه وكل جانب في حياتي كان قد تغير".

تلك الجملة ألهمتها الفكرة التي تبدو شديدة الغرابة وهي (إرادة الفشل)، فهل يفشل الإنسان بإرادته؟ تلك هي فكرة الكتاب المحورية، فنحن ضحايا إرادة الفشل، فإذا لم ندرك هذه الحقيقة في وقت مناسب قضينا أعمارنا دون أن ننجز ما نريد، فنظل مفتقدين لوسيلة لمغالبة إرادة الفشل في استطاعتها أن تفعل السحر. وعلينا أن ننظر إلى إرادة الفشل كحقيقة واقعة، ولو أن الجمود والنشاط الزائف وجدا في نهاية الحياة أو لو أنها لم تشل قوانا وحيويتنا ونحن في ذروة القوة والحيوية، لما كان هناك مبرر أن نصفها بأنها العدو الألد لفاعليتنا وقدرتنا على الإنتاج.

فالفشل –وفقًا للكتاب– ليس إلا دليلًا على أن مجهودًا ما قد بُذِل في الطريق الخطأ، ولا بد للفشل من طاقة نشاط، هذه حقيقة قد لا ندركها أبدًا، أو على الأقل قد لا ندركها على الفور؛ فالبشر يرون الفشل نقيضًا للنجاح، ومن ثم يمنحون للفشل صفات مناقضة تمامًا لصفات النجاح. فإذا كان النجاح يتطلب نشاطًا، فلا بد –وفقًا لتلك الرؤية– أن يتطلب الفشل جمودًا، وهذا حق من ناحية ما، ولكن الجمود ليس معناه افتقاد الجهد، فعلم النفس يخبرنا أن الجمود يحتاج جهدًا يبذله الإنسان لمقاومة الحركة، بحيث يظل جامدًا في مكانه، غاية ما في الأمر أن مقاومة الحركة تحدث داخليًّا فلا نشعر بأي أثر لها، فحتى الكَسول البادي الكسل يحرق وقودًا بينما هو سادر في خواطره. وعندما يتأتَّى الفشل نتيجة منح الوقت

بسخاء لوسائل قتل الوقت، فهذا معناه أن طاقة النشاط تُنفَق في الاتجاه الخطأ، ولكن ثمة وسائل خفية لقتل الوقت، فبذل أي مجهود لا يفضي إلى غاية –مع أنه يدعنا متعبين– هو مجهود يبذل فعلًا لتحقيق الفشل.

هنا تخبرنا الكاتبة أن الوقت والجهد اللذان ننفقهما لتحقيق الفشل كان يمكن أن ننفقهما لتحقيق النجاح، وكل ما ينبغي أن يتسلح به المرء لإجراء هذه التجربة هو الخيال والتضحية –لفترة مؤقتة– بما اعتاد عليه من سلوك وممارسات، حتى يتم ولو عملًا واحدًا من الأعمال التي يتطلع إليها. تجزم الكاتبة بصحة تلك الوصفة قائلة: "لقد حققت هذه الوصفة النجاح للمئات وفي مقدروها أن تحققه لك". وعن ضحايا إرادة الفشل يقول الكتاب:

"إن أولئك الواقعون في قبضة إرادة الفشل يتصرفون كما لو كانوا سيعمرون ألف سنة"، ثم تضرب المؤلفة عدة أمثلة لأشخاص يتصرفون كما لو كان العمر سيمتد بهم إلى الألف، فمنهم من ينام أكثر من حاجته بساعتين أو أكثر، إنهم يتعكر مزاجهم إذا تأخروا عن موعد نومهم الباكر، ويحصون بلهفة في كل صباح الساعات التي قضوها نيامًا، إن نومهم الزائد فعل قهري تفرضه عليهم إرادة الفشل. وكذلك المستغنون عن الناس والمدفونون بين طيات الكتب، والمنغمسون في حل (الكلمات المتقاطعة) وغيرهم الكثير، في الظاهر إنه لا يوجد هدف ولا غاية من هذه الأنشطة الرتيبة، ولكن الواقع أن وراء هذا النشاط هدف خفي، أن نبدو أمام الناس منشغلين بالعمل مزدحمين به.

بعد ذلك تطرق المؤلفة فكرة غريبة أخرى هي (ثمار الفشل)، فأنت حين تفشل تحظى بثمرات حقيقية تتمثل في تفاديك التعب والعناء، وكل ما يلاقيه الساعي إلى النجاح إذا عاكسته الظروف وواجهته الصعاب، كما تفلت من الهمسات والشائعات التي تلاحق كل نجاح. وبرغم إرادة الفشل وبرغم ثمار الفشل فإن النجاح هو الهدف الطبيعي للإنسان السوي في الحياة، وأنت إن لم تبالغ في تقدير صفاتك وإمكانياتك فسوف تجد فكرتك عن النجاح في نطاق الأشياء التي تستطيع أداءها، نحن عادة ما نبخس قيمة إمكانياتنا. هنا تضيف الكاتبة وصفة أخرى: "أريدك الآن أن تستعيد في ذهنك الصورة الأولى التي رسمتها لهدفك، والحلم ميسور التحقيق الذي تصورته في خيالك زمنًا، أريدك أن تستعيده واضحًا بينًا نابضًا بالحياة، فهنالك يصبح تحقيقه أقرب وأدنى. لقد مررنا جميعًا بتجارب من الألم والمذلة، ولكن لحسن الحظ ففي ميسورنا أن نسلم ذكرى الألم السابق أو المذلة السابقة للنوم، فلا تعود تقف عقبة دوننا والنجاح، ولا تدفعنا إلى الفشل، كيف؟ المسألة غاية في البساطة بأن نتصرف كما لو كان من المستحيل أن نفشل، نعم، ذلك هو الطلسم السحري الذي يحول فشلنا إلى نجاح.

وسوف تجد متى استطعت أن تجسم في خيالك الحالة الذهنية الكفيلة بدفعك في اتجاه النجاح الذي أعددت له العدة وأملت فيه، سوف تجد طاقة هائلة من النشاط والحيوية تنطلق من عقالها لتسخر في خدمتك، فإذا ذكرت هذا ووعيته خرجت من أفق إلى أفق أرحب، وتبدت لك إمكانيات أكثر. وهنا سوف يجد المرء أنه يعمل أكثر مما كان يعمل من قبل، ومع ذلك

فهو لا يشعر بالتعب، وإذا كنت الآن وانت تطالع هذه السطور تحسب أنني أدعوك لخداع نفسك وإيهامها بالنجاح فأنت مخطئ، فنحن في حياتنا اليومية عمليون تجريبيون، فما يفضي إلى النتيجة تقبلناه حقيقة علمية واقعة. يقول "هانز فايهنجر" في كتابه "فلسفة كما لو كان": "من الواضح الجلي أننا في شتى أمور حياتنا يتعين علينا أن نتصرف (كما لو كان) هذا الأمر أو ذاك حقيقة واقعة، فإذا أصررنا على أن نتحقق من (حقيقة) هذه الحقيقة أو تلك فلن يبقى أمامنا متسع لكي نعمل"، وما دمت قد جربت الحياة غير المثمرة ولا المجدية، أي تصرفت (كما لو كنت) تبغي الفشل، فلماذا لا تفعل العكس لتبلغ الحياة المثمرة المجدية فتتصرف (كما لو كنت) تبغي النجاح، على الأقل فلسفتك هنا فلسفة صحيحة سليمة فهي تدعوك إلى العمل والإنجاز. هكذا تتوالى الوصفات عبر فصول الكتاب، ولعل من أهمها تلك المرتبطة بالخيال، فمنافع الخيال لا تحصى، ففي وسعه أن يجعلنا ننظر إلى أنفسنا عن بعد، متجردين عن عواطفنا وهواجسنا التي كثيرًا ما تعوقنا، وفي مقدوره أن يمحص لنا شخصية منافس لنا حتى نستفيد من تجربته ونتجنب أخطاءه، وهذا يمهد أمامنا طريقًا لازمًا للعبور من الفشل إلى النجاح.

حازم خالد

مقدمة المؤلف

لماذا ألفت هذا الكتاب؟

منذ عامين وقفت على (وصفة) للنجاح أحدثت في حياتي ثورة، كانت من الوضوح والبساطة بحيث صعب علي أن أصدق أنها هي التي أتت بهذه النتائج السحرية المعجزة.

وأعترف أني كنت –إلى عامين مضيا– إنسانة فاشلة! لم يعلم هذا أحد سواي وسوى أولئك الذين عرفوني عن كثب، وعرفوا أنني لا أؤدي إلا معشار ما أنا خليقة بأدائه، كنت أشغل مركزًا لا بأس به، ولم تكن حياتي خامدة جامدة، ومع ذلك لم يكن لدي أدنى شك في أنني قد فشلت، على الأقل فيما بيني وبين نفسي! ألفيت أن ما أفعله ليس إلا بديل ما أردت أن أفعله وأعددت له الخطط، وأدركت أنه برغم وجاهة الأعذار التي كنت أنتحلها لنفسي تبريرًا لفشلي، فقد كان ثمة مزيد من الأعمال في وسعي أن أؤديها، وأن أؤديها على أكمل وجه.

وطبيعي أنني كنت أتلمس سبيلًا للخروج من المأزق ذاك، فلما أسعدني الحظ بالعثور على هذا السبيل، شككت في أن يكون حظي مواتيًا كما بدا.

ولم أحاول بادئ ذي بدء أن أحلل الموقف أو أفسره، فقد كانت

(الوصفة) التي اتبعتها من البساطة والنتائج التي ترتبت عليها، من الروعة بحيث طغى اغتباطي على الشك وعدم التصديق! كنت قبل ذلك أحاول جاهدة أن أتخلص من متاعبي، وكثيرًا ما لاح لي أنني فعلت، ولكن أعود إلى الوقوع في حبائلها المتشابكة، فلما اتبعت هذه (الوصفة) ودأبت على اتباعها، ألفيت نفسي غارقة في متع الحياة، ومن ثم لم أجد وقتًا للتحليل والتفسير.

وجدت نفسي أفعل ما كان يلوح لي من قبل مستحيلًا، وأفعله في سهولة ويسر، ووجدت الحوائل والعوائق التي كانت تبدو لي قبلًا عصية التخطي، تذوب كذوبان الجليد بفعل الشمس الساطعة، ورأيت قناع الجبن والخجل والتردد الذي قيدني سنوات عدة، يسقط مني كسقوط القيد الحديدي متى فتح قفله.

فقد ظللت سنوات عدة جامدة في مكاني لا أتحرك، كنت أعرف ما أريد أن أفعله، وقد أعددت نفسي لمهنتي أحسن إعداد، ومع ذلك لم أتقدم قيد خطوة! اخترت الكتابة ميدانًا لعملي منذ مستهل حياتي، وأقبلت عليها تحدوني آمال عراض، وقد لقي ما أنجزته من أعمال استقبالًا حسنًا، حتى إذا أردت أن أخطو بعد ذلك خطوة أخرى وأنتقل إلى وجه أنضج من أوجه العمل الذي اخترته، ألفيت نفسي أشبه بالصخرة الصماء، وأحسست أنني لا أستطيع الحراك قيد شعرة.

ومن نافلة القول أنني نأيت عن السعادة، لا إلى حد البؤس والشقاء،، ولكن إلى حد الاكتئاب والقلق؛ لعجزي وقلة حيلتي.

وانشغلت بالتحرير حين لاح لي أني مقدر علي أن أخفق في الجانب الأكثر إيجابية من الأدب، ولكنني لم أكف عن استشارة الأساتذة والمحللين، وعلماء النفس والأطباء فيما أصنع للخروج من المأزق الذي ألفيت نفسي واقعة فيه، وتحريت وفكرت وقلقت، وجربت كل (وصفة) للخلاص، ولكن إن جد شيء فلفترة محدودة موقوتة، فلفترة معلومة أنهمك في العمل بنشاط كالذي يبعثه دبيب الحمى، ثم لا يستطيل هذا النشاط المحموم لأكثر من أسبوع أو أسبوعين، وتنتهي فترة الحماس، وأنا أبعد ما أكون عن الهدف، وأسهل ما أكون فريسة للخيبة واليأس.

ثم جاءت الفكرة التي أطلقتني عن عقالي، جاءت على غير انتظار، وعن غير عمد. كنت منهمكة في إعداد بحث، فوقعت على جملة في كتاب (ف.و.مايرز) (الشخصية الإنسانية) تضمنت من الإلهام والإيحاء ما جعلني أطوي الكتاب جانبًا لأتدبر ما انطوت عليه من آراء وأفكار، وحين عدت إلى الكتاب مرة أخرى، كنت قد خلقت خلقًا جديدًا. كل اتجاه وكل جانب في حياتي كان قد تغير.

ولم أدرك هذا في البداية كما أسلفت، ولكن يقيني راح يزداد يومًا بعد يوم في أنني أخيرًا قد وجدت سلاحًا لمغالبة الفشل والجمود، وإثباط العزيمة، وإنه لسلاح بتار.

وألفيت أيامي حافلة بالعمل، بحيث لم يبقَ لدي من الوقت ما أنفقه في الانسياق وراء خواطري، راحت الكتب التي حلمت بإخراجها، وأخفقت في ذلك إخفاقًا مؤلمًا تتدفق كالسيل، ورحت أكتب بأقصى ما

تستطيع يدي من سرعة، ولا أحس أن طاقة نشاطي قد استهلكت أو استنفدت، وأخذت الأفكار الجديدة تنساب إلي من مكمنها وراء السد الذي كان قد احتجزها في ذهني.

وفي خلال الأعوام العشرين التي سبقت وقوعي على هذه (الوصفة)، كان كل ما أنجزته يتألف من: سبع عشرة قصة قصيرة، وعشرين نقدًا للكتب، وست مقالات الصحف، وثلث رواية ثم كففت عن المضي فيها. وفي العامين اللذين أعقبا تلك اللحظة الملهمة، وسعني أن أنجز ثلاثة كتب، وأربعة وعشرين مقالًا، وأربع قصص قصيرة، واثنتين وسبعين محاضرة، وهياكل ثلاثة كتب جديدة، وعدد لا يحصى من الردود على الاستشارات التي كانت تصلني من مختلف الأفراد.

ولم تكن هذه وحدها هي نتائج تجربتي لهذه (الوصفة) السحرية، كلا، فبمجرد أن استكشفت سرها في إطلاق طاقة نشاطي للكتابة، بدأت أبحث متسائلة: ماذا يمكن أن تصنع لي في غير الكتابة من الميادين؟ ورحت أجربها في كل ميدان لقيت فيه من قبل نصبًا وعناء.

جربتها على الجبن والخجل، وكانت النتيجة باهرة، ألفيتني أجري المقابلات، وألقي المحاضرات، وأجد في ذلك لذة لا مزيد عليها. ووجدت نفسي على وفاق مع نفسي، لا أعاقبها ولا أعذبها، ولا أدفعها دفعًا لأستشعر في النهاية التعب والملل.

وبرغم ما حققته لي هذه (الوصفة) من نجاح باهر، فإنني لم أخبر بها

إلا قلة قليلة من أصدقائي، فقد حسبت في غمرة اليأس أن حالتي كانت شاذة فريدة، وهو إحساس أدركت فيما بعد أنه يشركني فيه تسعة وتسعون على الأقل من كل مئة شخص! ومن ثم فما أفادني لن يفيد غيري، ثم رحت أتبين رويدًا أن كثيرين غيري يضيعون حياتهم بالطريقة نفسها التي كنت أضيع بها حياتي، وأدركت عندئذ أن هذا الذي أنقذ حياتي يسعه أيضا أن ينقذ حياة غيري.

ولولا الصدفة لما خطر لي أن أنشر على الملأ هذا البرنامج البسيط الذي فعل في حياتي فعل السحر، فمنذ بضعة أشهر مضت، دعيت لإلقاء محاضرة في نخبة من ناشري الكتب، وكان الموضوع الذي حدد لي هو (الصعوبات التي تواجه الكاتب)، وكنت قد عالجت هذا الموضوع في أحد كتبي، ولكني لم أرد أن أقرأ على المستمعين ما كتبته في كتابي خاصًا بهذا الموضوع، وهم لا بد قد قرؤوه. على أني حين شرعت أعد محاضرتي ألفيت أنني في الحقيقة عاجزة عن أن أضيف شيئًا إلى ما سبق أن كتبت، سوى القول بأن أشق الأمور الكاتب هو أن يتعلم كيف يغالب جموده وجبنه لكي يبدأ.

ومضيت في تدبر الموضوع وإعداد المحاضرة، والنتيجة التي خرجت بها هي التي تراها في هذا الكتاب، وتلك أننا ضحايا (إرادة الفشل)، فإذا لم ندرك هذه الحقيقة في وقت مناسب، قضينا أعمارنا دون أن ننجز ما نريد. وإن ثمة وسيلة لمغالبة (إرادة الفشل) فباستطاعتها أن تفعل فعل السحر.

وألقيت المحاضرة، وذهلت للاستقبال الذي لقيته، كنت أقدر أن يجد شخصان، أو ثلاثة على أحسن الفروض، فيما قلت معوانًا لهم على حل مشكلاتهم، ولكن سيل الرسائل والتعليقات والمحادثات التليفونية أقنعني بأن كل

من استمع إلى محاضرتي كان يعاني ما عانيت، وأنه كان يترقب ما يخرجه من مأزقه.

وألقيت المحاضرة مرتين أخريين، ولم تكن النتيجة في المرتين لتختلف عنها في المرة الأولى.

ولا شك أننا نحيا حياة دون المستوى الذي نحن خليقون به، فإذا تحررنا من العوامل التي تقعد بنا وتعطلنا وتقيد نشاطنا، واقتربنا من الإمكانيات الكامنة في نفوسنا، لرأينا أنفسنا نخلق خلقًا آخر، وأن حياتنا الطبيعية المتكاملة التي هي من حقنا لتبدو لنا كأنها شيء خارق للطبيعة، متى قسناها بالحياة الناقصة المترددة المتعثرة التي نفرضها على أنفسنا فرضًا. فإذا عرفنا هذا، عرفنا أن أولئك الذين عاشوا عيشة منتجة مثمرة سواء كانوا من الساسة أو الفلاسفة أو الفنانين أو رجال الأعمال، إنما استخدموا في وقت من أوقات حياتهم –وربما عن غير وعي منهم– إمكانياتهم الذهنية، في حين أخفق غيرهم في أن يعرفوا أو في أن يستكشفوا ماهية إمكانياتهم هذه.

وهؤلاء الذين أخفقوا حتى الآن في استكشاف إمكانياتهم، أقدم هذا الكتاب. إنه ليس قصة تطور فكرة، وإنما هو مرشد عملي أهديه إلى كل متطلع إلى حياة سعيدة مثمرة.

دوروثي براند

الفصل الأول

لماذا نفشل ؟

الوقت والجهد اللذان ننفقها لتحقيق الفشل كان يمكن أن تنفقهما لتحقيق النجاح.. هل يبدو هذا أشبه باللغز؟ إنها الحقيقة التي تنطوي على الأمل والرجاء.

افترض أن رجلًا على موعد في مكان يبعد مئة ميل شمالي عن منزله، وأن هذا الموعد سيعود عليه بالصحة والسعادة والفلاح ما بقي له من عمر، وافترض أن أمامه من الوقت ما يكفيه للوصول في الموعد، وأن في خزان سيارته من الوقود ما يكفي للوصول، ثم افترض بعد هذا أن صاحبنا رأى من الأمتع له أن يتجه أولًا جنوبًا مسافة خمسة وعشرين ميلًا قبل أن يشرع جديًا في الاتجاه نحو الهدف، فما قولك فيا صنعه الرجل؟ حماقة ولا شك! ولم يكن للوقود دخل فيما صنع الرجل، ولم يختر الوقت على أي وجه ينفقه، والطريق امتد شمالًا كما امتد جنوبًا، فليس على أي من هذه إذن تثريب في تقصير الرجل عن بلوغ غايته.

فإذا حدثنا الرجل بعد ذلك قائلًا إنه استمتع بالرحلة التي قام بها في الاتجاه المضاد، وإنه لذ له أن يقود سيارته على غير هدى بدلًا من أن يسيرها في اتجاه محدد، فهل نثني على الأسلوب الفلسفي الذي يتقبل به إخفاقه؟! كلا، بل ينبغي أن تحسبه أحمقًا، وحتى لوأنه اخطأ الاتجاه

لاستغراقه في حلم من أحلام اليقظة، لما أعفانا هذا من أن ننحو عليه باللائمة، بل حتى لو أنه وصل وجهته بعد الميعاد لأنه ضل الطريق عفوًا، لاتهمناه بسوء الحكم؛ لأنه كان في ميسوره أن ينظر خريطة الطريق ليتعرف عليه قبل أن يبدأ.

وبرغم هذا، فنحن فيما يتصل باتجاهنا رأسًا إلى غاياتنا في الحياة، نسلك مسلك صاحبنا الأحمق الذي سقنا مثله! نسير في الاتجاه الخطأ، ونفشل حيث كان يسعنا النجاح بما أنفقناه في الفشل من وقت وجهد ، فالفشل ليس إلا دليلًا على أن مجهودًا قد بذل في الطريق الخطأ، ولا بد للفشل من طاقة نشاط.

هذه حقيقة قلما ندركها على الفور، فقد اعتدنا أن نرى الفشل نقيضًا للنجاح، ومن ثم عزونا للفشل نقائض صفات النجاح.

والنجاح يتطلب نشاط، فلا بد إذن أن الفشل يتطلب جمودًا، وهذا حق، ولكن الجمود ليس معناه افتقاد الجهد، ودع أي عالم نفساني يخبرك كم يحتاج الرجل الناضج من الجهد ليقاوم الحركة، فثمة كفاح شديد لا بد منه لمغالبة قوى الحياة والحركة، بحيث يظل المرء جامدًا في مكانه، غاية ما في الأمر أن الكفاح يحدث داخليًا فلا تحس له –على السطح– أثرًا! والجمود البدني ليس دليلًا صحيحًا على أن الحياة لا تحترق بداخل الشخص الجامد، فحتى الكسول البادي الكسل يحرق وقودًا بينما هو سادر في خواطره.

وعندما يتأتى الفشل نتيجة تكريس الوقت لوسائل قتل الوقت، فهناك نرى أن طاقة النشاط تنفق في الاتجاه الخطأ. ولكن ثمة وسائل لقتل الوقت خفية غير مستبينة، بل لعلها تبدو على العكس، كأنما هي أعمال شاقة تستنفد مجهودا كبيرًا، وتستدر من المشاهد الإعجاب والثناء، فإذا دققت النظر اكتشفت أن هذا المجهود لا يفضي بنا إلى غاية، وأنه يدعنا متعبين ساخطين، وأنه مجهود يبذل فعلًا لاجتلاب الفشل.

فلماذا كان الأمر كذلك؟ ما دام النشاط نفسه خليقًا بأن يوصلنا إلى النجاح، فلماذا نتعثر في غالب الأحيان في بلوغ غاياتنا التي رسمنا لها الخطة وأعددنا العدة؟ لماذا لا ننجز إلا القليل، ونعطل أنفسنا عن الوصول إلى أهدافنا؟ لماذا نعتبر أنفسنا فلاسفة حين ننتحل لأنفسنا أعذارًا عن بدء الرحلة متأخرين، أو بدئها في الطريق الخطأ، أو افتقادنا معالم الطريق نتيجة انسياقنا في الخواطر وأحلام اليقظة؟ لا أحد يجد العزاء حقا فيما يتقول به من أن عصفورًا في اليد خير من عشرة على الشجرة، فأمثال هذه (الحكم) لم تضرب لتقود خطانا في طريق الحياة، ونحن لا نخدع بهذا التفلسف أحدًا وإن قبل الناس أعذارنا ما داموا هم أيضا على غرارنا.

ويستمع الرجل الناجح إلى هذه الأقاويل فيبسم ساخرًا، وقد ازداد يقينًا أن النفاق ما برح بخير! فهو وحده يملك الدليل على أن الحياة الموجهة أجزى وأشهى ثمارًا من كل ما عساه يتأتى مع الفشل من ثمار هزيلة، وأن عملًا أنجز وخرج إلى حيز الوجود هو أفضل وأبقى من جبال شامخة من الأحلام والخواطر.

وحتى حين نعزي أنفسنا عن الفشل، فإننا لا نحس العزاء والراحة، فنحن في ذات أنفسنا لا نؤمن بهذه الحكم والأمثال التي نتشدق بها، وإن بدت في سمعنا طبيعية الموقع، ومن أمثلتها أن على المرء أن يختار بين النجاح وبين الحياة الممتعة، كأن النجاح والحياة الهانئة على طرفي نقيض.

بل نحن نوقن بأن الناجحين يستمتعون –كما نستمتع– بالشمس الساطعة، والهواء الطلق، والحب والتقدير، يستمتعون بهذا أكثر مما يستمتع الفاشلون، بل يستمتعون فوق هذا بما يحسون به ويدركونه من أنهم اختاروا طريق الحياة والنمو، بدلًا من طريق الموت والفناء.

فلماذا نفشل إذن؟ بل لماذا نجتهد في الفشل؟

لأننا إلى جانب خضوعنا لإرادات نفسية إنشائية شتى، كإرادة الحياة، وإرادة القوة، نخضع أيضًا لإرادة الفشل، أو إرادة الموت ، ولعل من الناس من يسمع بهذه (الإرادة) للمرة الأولى، فقد شبعنا سماعًا بإرادة الحياة وإرادة القوة، ولكن إرادة الفشل من الغموض بحيث قل أن نلحظها وهي تؤدي عملها، وهي تتخذ أشكالًا فردية شتي تختلف باختلاف النماذج (السيكولوجية) للأفراد، وهي تهدنا بغير تحذير ما دمنا لا نرى الفشل إلا طيفًا، ولا نراه قط حقيقة مجسمة ينبغي أن نواجهها ونغالبها.

وإدراك أن ثمة إرادة للفشل –أو إرادة للموت سيان– تعمل في نفوسنا، وأن ثمة تيارًا هدامًا مقوضًا يسري في عكس اتجاه قوى الصحة والنمو، إدراك هذه الحقيقة هو الخطوة الأولى لتحويل الفشل إلى نجاح.

ولا ينبغي أن نبدأ بإهمال هذا التيار، فهو عندئذ خليق بأن يزداد استخفاء، بل ينبغي أن نواجهه حتى نقصيه ، ففي إمكاننا أن نستعيد جهدنا الموجه إلى الفشل، وأن نستغله في تحقيق غاياتنا السليمة، وثمة حقائق سيكولوجية واضحة متى أدركناها أبلغتنا إلى نتائج واضحة محددة، ومن هذه النتائج نستطيع أن نختط خطة نعمل بمقتضاها، ثمة طريقة بسيطة عملية يسعها أن تحول وجوهنا إلى الاتجاه الصحيح، وهي الطريقة التي يتبعها كل ناجح، سواء واعٍ أو غير واعٍ، وهي من البساطة بحيث قد لا يصدق أولئك الميالون إلى تجسيم الأمور أن في ميسورها أن تعينهم وتجديهم. على أنني لا أحسبهم يمانعون في التجربة، ما دامت من البساطة كما ذكرت، ولندع للنتائج الحكم، فما أحسب وسيلة مقترحة يقال إنها تفضي إلى حياة أحفل، وعمل أفضل، إلا جديرة بالتجربة على أية حال.

كل ما ينبغي أن يتسلح به المرء لإجراء هذه التجربة هو الخيال، والتضحية –لفترة– بما درج عليه من عادات ريثما يتم عملًا واحدًا من الأعمال التي يتطلع إليها، أما في كم من الوقت يتم هذا العمل، فأمر يختلف من فرد إلى آخر، ويتوقف على طبيعة العمل نفسه، وهو يعتمد على الفرد نفسه، أو يعتمد على التعاون بينه وبين غيره من الناس، ومهما يكن من أمر فسوف تتضح بعض النتائج الأولية توًا، وهي نتائج –لعمري– تثير الدهش، ولن أحصي لك هذه النتائج الآن، فسماعك بها كسماعك معجزة، وعسى أن تثير فيك الشك، والشك من العادات التي ينبغي أن تشرع من الآن في (التضحية) بها.

و مرة أخرى أكرر أنه وإن بدت النتائج كالمعجزات، فإن الطريقة نفسها من البساطة والوضوح بمكان عظيم، وإنها لجديرة بالتجربة، فقد حققت النجاح للمئات، وفي ميسورها أن تحققه لك.

الفصل الثاني

إرادة الفشل

تناهت إلينا من تلامذة شوبنهور وفرويد ونيتشه وأدار، عبارات كإرادة الحياة وإرادة السيطرة، أصبحت مألوفة متداولة، تشير إلى حوافز تدفع بالمرء إلى الإنجاز، وتتفق مع تجارب لعلنا جميعًا جربناها. فقد رأينا أطفالا يكافحون لفرض شخصياتهم، وفي صبانا كنا نتحين الفرص لإثبات جدارتنا، وفي أعقاب مرض طويل كنا نحس دبيب الحياة يعود إلى شراييننا، ثم لا يلبث أن يتدفق كفيض النهر.

ونحن نعرف أن المرء متى دهمته نوائب الفقر أو الحزن أو المذلة، وهي نوائب قد يراها البعض أبغض من الموت وأشد قوة، فإنه لا يدفعنا إلى كفاحها إلا إرادة الحياة مجردة.

وفضلًا عن ذلك فإننا نخوض تجربة النمو، ثم نعلم فيما بعد الشيء الكثير عنها. ننتقل من الطفولة إلى المراهقة، ومن المراهقة إلى البلوغ، وفي كل مرة ننتقل فيها من طور إلى الذي يليه نجد أن ميول الطور وأوجه نشاطه تتلاشي لتحل محلها ميول أخرى وأوجه جديدة للنشاط، فالطبيعة في كل مرة تعد المرء لدوره الجديد في الحياة، وتوائم بينه وبين حاجاته الجديدة، وتعد له متعًا جديدة تلهيه عن متع الطور القديم التي لا بد له أن يتخلى عنها.

كل ذلك عرفناه، ولكن فكرة وجود إرادة أخرى متعارضة مع هذا كله، إرادة الفشل أو إرادة الموت تبدو غريبة عصية على التصديق.

وقد لبثت هذه الفكرة غصة في حلق التحليل النفسي زمنًا، فلم يخطر ببال أحد أن تراود فردًا فكرة العدم أو اللا وجود، حتى أحلام الموت والتهديد بالانتحار كانت تؤخذ على أنها من قبيل الرغبة في الانتقام، أي رغبة المرء في تسبيب الأسى والحزن لمن أساؤوا معاملته. ولكن المرء مع ذلك لا يتصور نفسه منعدمًا قط، وإنما هو يتصور نفسه مختفية أو غير منظور وحسب. وفي خلال الحرب العالمية الأولى، حلل "فرويد" كثيرًا من المصابين بصدمة الحرب (Shell Shock) ثم كتب بعد ذلك رسالة يقول فيها أنه تبين في بعض أحلام مرضاه (رغبة مخلصة) في الموت.

وبرغم أن الرسالة انطوت على طائفة من أحصف آراء فرويد، إلا أن الناس أبوا أن يسلموا بوجود تيار يتجه نحو الموت يسري في حياتنا.

ومع ذلك فالموت تجربة حقيقية كالولادة والنمو، وإذا كانت الطبيعة تعد المرء لكل طور من أطوار حياته بأن تسدل ستارًا على رغباته وميوله السابقة، وتفتح له آفاقًا جديدة للرغبات والميول، فلماذا يصعب أن نتصور أن الطبيعة تعدنا رويدًا للانسحاب من الحياة ومظاهرها جميعًا، وهي تجربة ستلم بنا حتمًا؟

لنا إذن أن ننظر إلى إرادة الفشل كحقيقة واقعة.

ولو أن الجمود والنشاط الزائف، والمجهود الذي يبذل سدى،

واليأس، لو أن هذه كلها وجدت في نهاية الحياة، أو حين ينهكنا المرض أو تدهمنا الأعباء، أو لو أنها لم تشل قوانا وحيويتنا ونحن في ذروة القوة والحيوية، لما كان هناك مبرر لأن نصفها بأنها العدو الألد لفاعليتنا وقدرتنا على الإنتاج، ولكنها حين توجد في طور شبابنا، أو في أوج نضجنا، فإنها حينئذ دليل على اختلال في نفسية المرء، تمامًا كما أن النعاس في غير أوان النوم دليل على اختلال في صحته.

ولو أننا نحس بمقدمها حين تقدم لهان علينا أن نكافحها، ولكننا غالبًا ما نجد أنفسنا في قبضتها دون أن نشتبه في أنه قد جد علينا جديد، أو أن ما هو حادث ما كان ينبغي له أن يحدث. وقد جرت عادتنا بأن نصف الفشل والحرمان والجبن بأنها صفات سلبية، وبأن نشبه إقدامنا على مكافحة الفشل بإقدامنا على مكافحة الرياح العاصفة.

وقل في شبابنا أن ندرك أعراض الفشل في أنفسنا، إنما نعزو عزوفنا عن الشروع في العمل أو المضي فيه إلى جبن طبيعي عن مواجهة الحياة، ولكن العزوف يستمر، والزمن يمضي، ونستيقظ فجأة لنرى أن ما كنا في شبابنا نعده شيئًا طبيعيًا، إذا هو الآن شيء مختلف، شيء بغيض مخيف، أو لعلنا كنا نلتمس عذرًا في موقف عائلي، كإشفاقنا من ترك هذا الفرد أو ذاك من أفراد العائلة وحيدًا عاجزًا، فإذا الأسرة وقد كبرت تشتت وأصبحنا وحدنا، ولم يعد ثمة مجال للنشاط الزائف الذي كنا نبذله في العناية بهذا الفرد من أفراد العائلة أو ذاك، وإذا نحن يعترينا الخوف من أن نستدير لنبدأ مشروعاتنا القديمة المهملة.

أو لعلنا نلتمس عذرًا آخر هو أشيع الأعذار بين الناس، ذلك أن أكثرنا يتحتم عليه أن يختار بين العمل أو التضور جوعًا، ومن ثم فعذرنا الشائع أننا حين يتعين علينا أن نعمل نخلد إلى عمل ليس أنسب الأعمال لنا ولسنا أنسب الناس له.

ثم يتزوج الواحد منا فتصبح أعباؤه المالية أفدح، وحاجته إلى العمل أشد، ومن ثم نتابع العمل الذي نبغضه متعللين بآمال غثة واهية.

تلك الحاجة الملحة لقبول أول عمل يعرض علينا هي وحدها تكفي تفسيرًا للحقيقة الواقعة، وهي أن قلة قليلة من الناس يقدر لها أن تحقق أهدافها الحقيقية في الحياة! وغالبًا ما نبدأ جميعًا بتصميم قوي على ألا ندع أهدافنا تغيب عن نواظرنا، وإن اضطررنا إلى عمل –أي عمل– لكسب قوتنا، إننا نزمع أن نعلق أبصارنا آمالنا ومطامحنا، وأن نسعى لتحقيقها بقدر ما يسمح الظرف، في أيام العطلات أو نهايات الأسبوع، أو بعد الفراغ من العمل. ولكن الوقت الطويل الذي يستغرق النهار وجزءًا من المساء، والذي نقضيه في العمل الرتيب يصيبنا ولا شك بالإرهاق، والرجل الذي يسعه بعد ذلك أن يتابع العمل وهو يرى الناس كلها تلهو حين يعمل، إنما هو شيء نادر الوجود، بل إن الرجل الذي يبقى له مطمح في أن ينجح في هدفه الذي خصص للعمل من أجله وقتًا إضافيًا شيء أندر.

وهكذا –دون أن ندرك أو نعي– نجد أنفسنا وقد اكتسحنا تيار إرادة الفشل، نعم إننا نمضي ونتحرك، ولكننا لا نحس لحركتنا أثرًا.

وأغلب الناس يفلحون في تقنيع فشلهم وحجبه عن المجموع، بل هم يفلحون أكثر في حجبه عن أنفسهم! فليس من الصعب أن نتجاهل أن ما نصنعه وننجزه هو دون ما يمكن أن نصنعه وننجزه بكثير، وأنه بالقياس إلى ما قدرنا أن نصنعه في مرحلة سابقة من مراحل العمر شيء تافه حقًا، وأنه لا يعدو أن يكون جزءًا يسيرًا مما حلمنا بصنعه وإنجازه. ومن أسباب سهولة خداع أنفسنا أننا نعقد –في مرحلة من مراحل العمر– اتفاقا صامتًا بيننا وبين معارفنا وأصدقائنا، مؤداه شيء كهذا: "لا تصارحوني بفشلي ولا أصارحكم بفشلكم".

ويظل هذا الاتفاق ساريًا في الشباب، وفي منتصف العمر، فما زالت هناك فسحة من الوقت بعد لأن نصيب أهدافنا إن استطعنا، ثم بعد ذلك بقليل يصبح الاتفاق لاغيًا، ونبدأ نحن بإلغائه إذ نسلم صراحة بفشلنا، وبأننا لم نحقق من مطامح شبابنا ما كنا نرجو تحقيقه. ففيما بعد الخمسين نأخذ الأمر مأخذ السخرية المريرة، وربما مأخذ التعزي، حين نرى قلة قليلة من رفاق الصبا هم الذين وسعهم أن يحققوا أهدافهم، وبديهي أنه يندر أن يسأل أحد شخصًا جاوز الخمسين قائلًا: "لما لا نبدأ الآن؟" هذا برغم أن طائفة من روائع الأعمال في العالم قد أبدعها أشخاص جاوزوا هذه السن.

وهكذا نعبر طريق الحياة دون أن نحقق ما حلمنا بتحقيقه، ودونأن نستكشف في أنفسنا ما نحن خليقون بتحقيقه، ودون أن نستخدم إلا جزءًا يسيرًا من مقدراتنا، سواء الفطرية أو المكتسبة.

فإذا كنا قد أصبنا قدرًا من الرفاهية، وقدرًا من إعجاب الناس واحترامهم، وقدرًا من السلطة، وقدرًا من الحب، حسبنا حينئذ أننا خرجنا من الحياة بصفقة لا بأس بها! بل ربما غبطنا أنفسنا على دهائنا دون أن ندرك كم

كنا مخدوعين، ودون أن نعي أننا قنعنا بما هو بديل من الموت، بدلًا من ثمرات الحياة.

ولو أن اللعبة التي نلعبها مع أنفسنا ومع بعضنا لم تنتهِ إلى نهاية، ولم نفطن إلى أنها في الحق لعبة كألعاب الأطفال، لأوصلتنا إرادة الفشل إلى الحضيض، ولكن اللعبة تنكشف في أغلب الأحيان، وهنالك نجد أنفسنا فجأة نسأل: "لماذا نجري ونهرول ولا نصل إلى شيء كما كنا نفعل ونحن أطفال، نجري ونقفز حتى ينال منا التعب ولا نصيب شيئًا؟ وماذا دهى حياتنا التي أردنا أن نحياها، وعلقنا عليها الآمال، وها نحن هؤلاء لا نفعل شيئًا أو نفعل ما لا يكسبنا أكثر من كسرة الخبز.

وأحيانًا نكتفي بالتساؤل وندع الأمر يمر عند هذا الحد، ثم ننساه لفترة طويلة، وقد لا نذكره مرة أخرى إطلاقًا، ولكن بعضنا لا ينسى قط، فإذا عاد إلى اللعبة مرة أخرى استحالت إلى كابوس مزعج، ويصبح شغله الشاغل كيف يرتد مرة أخرى إلى حياته الحقة، وأحيانًا ما يشتط الكابوس في ملاحقتنا، نهرب منه في منعطف تلو منعطف حاسبين أن الخلاص هناك، ولكن نجد أنفسنا نرتد إلى مكان اللعبة مرة أخرى.

ولكن الفرار من الكابوس مع ذلك ممكن، كيف؟ بأن نسلم بأنه ربما كانت هناك حقًا إرادة تنزع بنا نحو الفشل، وأننا كنا ضحاياها.

الفصل الثالث

ضحايا إرادة الفشل

لو أن إرادة الفشل تعلن عن وجودها بأعراض محددة كأعراض الحصبة أو الإنفلونزا مثلًا، فربما كانت قد قضي عليها أو ابتكر سلاح لمغالبتها، ولكن أعراضها للأسف كثيرة منوعة.

ولو أنك انتزعت شابًا مرحًا لا هم له إلا اللهو من حلبة الرقص، وقدمته لكهل مرسل اللحية لا هم له إلا التأمل والتفلسف، وقلت له: "أريدك أن تتعرف على هذا الرجل، فثمة وجه شبه كبير بينكما"، فلعل الناس تظن بك الجنون، ولكنك ربما كنت مصيبًا! فالفيلسوف المتأمل المنطوي، والصبي اللاهي المنبسط، إنما تدفعها دوافع واحدة: كل منها يسعى إلى الفشل.

قال"ماركوس أوريليوس" في (تأملاته) محذرًا: "لا تتصرف كما لو كنت ستعيش ألف سنة"، ومع ذلك فأولئك الواقعون في قبضة إرادة الفشل يتصرفون كما لو كانوا سيعمرون ألف سنة! وسواء كانوا يلهون أو يتأملون فهم إنما ينفقون أغلى ساعات العمر، كما لو كان منها معين لا ينفد.

ولما كانت ثمة طرق عديدة للفشل في مثل عدد أنواع الناس؛ لهذا شق علينا أن نرى في الناس وفي أنفسنا إرادة الفشل، وإليك بضعة من الأمثلة التي لا حصر لها من الطرق التي نتصرف بها كما لو كان العمر

سيمتد بنا ألف سنة.

ثمة أشخاص يقضون في النوم ما بين ساعتين وست ساعات أكثر مما يلزم لراحتهم ولصحتهم، هؤلاء ليسوا كسالى بطبيعتهم كما يصفهم الناس، وإنما نومهم الزائد فعل قهري تفرضه عليهم إرادة الفشل! إنهم أولئك الذين يعتكر مزاجهم إذا تأخر موعد نومهم المبكر، ويحصون كل صباح في لهفة وقلق الساعات التي قضوها نيامًا، ولا يتعزون فيما تخلل فترة نومهم من سهد، وحين يعمد الرجل الناضج إلى جعل النوم خلال اليوم مرة أو مرتين شيئًا (روتينيًا) فالتشخيص عندئذ واضح هين.

وهناك ضمن الفاشلين المقنعين، أولئك (الأيقاظ النيام)، الذين يدعون أوجه النشاط تمر بهم دون أن يمدوا يدًا للاشتراك فيها، أو ينغمسون فيها ويضيع الوقت على غير فائدة، فلا يصيبون من النشاط البنائي إلا القليل الذي لا يذكر.

وهناك المكتفون بأنفسهم المستغنون عن الناس، الذين لا يلعبون إلا دورًا مفردًا، والدافنون أنفسهم بين طيات الكتب لا يقيمون رؤوسهم عنها، والمنغمسون في التسلي بحل الألغاز وفك رموز (الكلمات المتقاطعة)، فثمة خط واهٍ دقيق بين الإدمان على الترفيه وبين الأفعال القهرية، والسلطة التي تريد أن تنأى بنا بعيدًا عن العمل الجاد المنتج.

ولعل أسهل من نرى فيهم إرادة الفشل متجلية، المدمنون على الخمر. ويسعني أن أكتب مجلدًا عنهم، ولكن ثمة مجلدات عدة قد سبقت

إلى الصدور. فحين يتصل الشراب حتى يجلب النوم في اليقظة، بل أسوأ من ذلك، الموت في الحياة، فإرادة الفشل عندئذ ظاهرة لكل من له عينان، ولكن ثمة آلافًا من غير المدمنين لا يبدون من أعراض إرادة الفشل سوى وجهًا باهتًا لا يستبين: أولئك الذين يحتسون الخمر وهم يعلمون أنهم سيستيقظون في أسوأ حالاتهم في صباح اليوم التالي، وأولئك الذين يشربون الخمر وهم يعلمون أنها تضر بصحتهم ضررًا ملحوظًا أو غير ملحوظ. فكل من عرف هذه العواقب عن تجربة، ومع ذلك أقبل على الخمر، فهو إنما يفعل ذلك عن رغبة في إيذاء نفسه –على الأقل– إلى الحد الذي يعلم أن الخمر ستنتهي به وإليه. بل إذا كانت القهوة تزعجك، أو كان اللبن عسر الهضم عليك، ومع ذلك تواصل شربها فلعلك تفلت من اللوم الذي يوجه إلى شاربي الخمر، ولكنك في الحق تنتمي إلى الطبقة نفسها التي ينتمون إليها، وقل القول نفسه عن الطعام الذي يتسبب منه الضرر ويقبل المرء مع ذلك على التهامه. والذين يتخذون الفشل شغلًا شاغلًا يفعلون ذلك بوسائل لا تقع تحت حصر، فالمدمنون على مشاهدة السينما أو المسرح لا تطيب لهم ليلة تخلو من اللهو والرقص، ولا يعدون من عمرهم يومًا يخلو من حفلة أو دعوة، وكلا، لست أنتقد الترفيه والاسترخاء بعد فترة من النشاط الإيجابي البناء، وإنما أقصد أولئك الذين ينحصر نشاطهم كله في اللهو والترفيه.

ثم هناك الفاشلون (نصف نصف)، الذين يشغلون فراغهم بأوجه نشاط هزيلة، بدلًا من تلك التي هم أكفاء للقيام بها. ومهما يكن من أمر، فإن الأمانة المطلقة مع النفس كفيلة بأن تبين لك هل النشاط الرتيب الذي تزاوله يدفعك إلى أعلى أم إلى أسفل، إلى النجاح أم إلى الفشل، فإذا كان ما تزاوله نشاطًا (روتينيًا)، أو آلية لا تستلزم من الاهتمام الواعي قدرًا

ملحوظًا، فالأرجح أنه لا يندرج في زمرة النشاط الإيجابي أو الإنشائي.

وقد يسهل علينا أن نلحظ ميل بعض الناس إلى الانغماس في الجدل العقيم، أو السفسطة العاقر، أو العبارات الجوفاء التي لا تهدف لشيء، ولا يسهل علينا أن نلحظ ميلنا نحن أنفسنا أحيانًا إلى ذلك! ثم إذا تأملنا أنفسنا يومًا أدهشنا أن نلحظ أنا نكرر لأصدقائنا ما نقول يومًا بعد يوم، الموضوعات نفسها ندور حولها في حلقة مقفلة، الآراء نفسها نرددها كالآلة الصماء، الحديث الذي لا يستهدف هدفًا نكرره يومًا بعد يوم، الأمثلة نفسها نسوقها تدليلًا على الآراء نفسها، فتلك وسيلة أخرى من الوسائل التي تتم بها إرادة الفشل عن وجودها بشكل يلابسه الغموض، وثمة وسيلة أكثر غموضًا تدلل بها إرادة الفشل على وجودها، خذ مثلًا أولئك الذين يضطلعون عامدين بأعمال لا تستلزم إلا جانبًا من مقدراتهم ومواهبهم، ثم يشغلون أنفسهم إلى حد الانهماك بالتفاصيل التافهة، أو أولئك الذين يفنون أعمارهم دائرين في فلك غيرهم، وأكثر هذه الفئة من الأمهات اللواتي يضيعن أعمارهن منشغلات ببناتهن أو أبناهن، وإن بلغ هؤلاء النضج، أو من البنات والأبناء الذين يضيعون أعمارهن منشغلين بأمهاتهم وآبائهم، دون أن يحقق هؤلاء وهؤلاء في الحياة شيئًا مذكورًا، أو أولئك الذين ينشغلون بدراسة لا تفرغ ولا تنتهي، فلا هي تجدي الناس شيئًا، ولا هي تجديهم هم أنفسهم شيئًا، أعرف طالبًا ظل منذ دخوله السنة الأولى في الجامعة يعد بحثًا عن سياسي نصف مشهور، حتى تخرج في الجامعة دون أن يرى حرف مما كتب النور.

ثم أولئك اللطاف الخفاف الظراف، الذين يحترفون الحديث اللبق، والتصرف الرشيق والهندام الأنيق، وليس في ذلك ما يستحق النقد إلا أن يكون همهم كله منحصرًا في الاستئثار بالإعجاب والظفر بكلمات الاستحسان، ولا

شيء أكثر من هذا، فتصرفهم عندئذ مداراة للنقص، وخداع للنفس في فيض الإعجاب الذي يغمرهم به الناس، والغرباء عنهم خاصة.

هذه قلة وحسب من الوسائل التي لا تحصى، والتي تنم بها إرادة الفشل عن نفسها، وتمتاز كلها بأنها تنطوي على نشاط يبدو أنه لا هدف له ولا غاية، ولكن الواقع أن وراء هذا النشاط غير الهادف هدف دفين. ولعل أظهر هذه الأهداف الدفينة هو أن نخدع العالم، ونحمله على الاعتقاد بأننا نبذل في الحياة أقصى ما في طوقنا! وطبيعي أنه ليس في وسع أحد أن يطلب منا أكثر مما في وسعنا، ألسنا نبدو أمام الناس منشغلين بالعمل مزدحمين به؟ ألا نبدو كما لو لم يكن في وسعنا أن نفعل المزيد؟ ألا نبدو كما لو لم يعد في وقتنا دقيقة من الفراغ؟ تلك أسئلة لا تطلعنا على أجوبتها الصحيحة سوى الأمانة المطلقة مع أنفسنا. ثم يمضي الوقت ولا نعود نهتم بأحكام خداع الناس، فإذا لم نكن نفعل ما نحن أهل لنفعله، وإذا لم نكن نسهم بنصيبنا في حركة تقدم العالم، باذلين ما نحن جديرين ببذله حقًا، فسوف نسمع صوت التعاسة يرن في أعماق أنفسنا، وسوف يعلو هذا الصوت مع الزمن، حتى لا يعود في الوسع تجاهله.

إن ضحايا الفشل من اللاهين، أو العاملين في غير أماكنهم، أو المندمجين في نشاط عقيم، يفلحون حقًا في شغل كل دقيقة من أوقاتهم بما لا طائل وراءه، ويفلحون أكثر في إحكام خداع الناس، وإيهامهم بأنه ليس في الإمكان أحسن مما كان، ولكنهم إن أحسنوا رؤية أنفسهم ألفوا أنفسهم أشبه بالبخيل الذي أعوزه جمع المال، فراح يجمع الخرق والقصاصات

والنفايات، إنهم يجمعون ما لا طائل وراءه من الإحساسات والتجارب والعواطف، ويقضون في ذلك العمر على قصره، ومهما تتنوع الأهداف الدفينة التي تكمن وراء نشاطهم غير الهادف، فثمة هدف واضح وان استقر في الأعماق، ذلك هو ملء حياتهم بأوجه من النشاط الثانوي أو البديل عن النشاط الحقيقي، بحيث لا يعود لديهم وقت يزاولون العمل الذي هم أخلق الناس مزاولته، بما ركبته الطبيعة فيهم من ميول ومواهب ومقدرات، الهدف إذن هو الفشل.

الفصل الرابع

ثمار الفشل

برغم أنه قد يبدو سخيفًا أن يدبر المرء مؤامرة –ولو غير واعية– للوقوع بين براثن الفشل، فإن الملاحظ أنه ليس ثمة شخص في كل مئة لا يعطل نفسه عامدًا ويصيب نفسه متعمدًا بالعجز. ولكي ندرك الأسباب الداعية لذلك، أفردنا هذا الفصل لنناقش (ثمار) الفشل.

لقد عودنا الاهتمام المتزايد بكافة فروع علم النفس أن نقبل الفكرة، مهما تبدو في أول الأمر مضحكة، وعرفنا من مطالعاتنا فيه أننا منهمكون معظم الوقت في الأوهام والأحلام، إننا نحل –سواء واعين أو غير واعين، أيقاظًا أو نيامًا– بحالة نكون فيها أسعد ما نحن في حقيقة الأمر ، وبين الحين والآخر تطفو فكرة طفولية عن السعادة، تصيب سيرنا في الحياة بالاضطراب أو خواطرنا بالبلبلة، وقد يتمثل الحلم في حياة رغدة خاملة، كما لو كان العقل الباطن قد صمم على ألا يخرجنا من الحماية التي كنا نجدها في عهد الطفولة، حيث الرغبات مجابة، وحيث الدفء والحب والطعام يغدق علينا إغداقًا. وقد كتب إيمرسون، ونحن بعد لا نعرف ولا نسمع شيئًا عن (التثبيتات) و(النارسيسية)، كتب يقول: "ولا نعتقد أن هناك قوة اليوم، في وسعها أن تنافس أو تفوق (الأمس) الجميل، إننا نتمهل بين إطلال خيمتنا القديمة، حيث نعمنا زمنًا بالطعام والمأوى، تلك

هي الحال معنا جميعًا، ولكنها أقل اتضاحًا في السعداء والناجحين".

وفي أحيان أخرى -لفرط العجب- تنصب الأحلام على النجاح. فالرجل الوادع ينقلب في خياله والمرأة المستضعفة تنقلب شعلة متأججة، فإذا لم تتدخل الحقيقة لتزعج هذا الحلم، فقد يسعد الحالم بانغماسه في أوهامه اللذيذة، أكثر مما يسعد لو ألفى نفسه في مركز يمكنه من تحقيق جانب من حلمه. مثل هذا الحلم هو في حد ذاته تعويض عن حياة (روتينية) جامدة، أو عن حياة مملة خالية من الأحداث. ولما كان العالم على ما هو عليه، فإن على الحالم أن يحيا ولو جانبًا من الوقت، في دنيا الحقائق الواقعة، فالأرض التي نعيش عليها ليست أرض الأحلام؛ فالسماء لا تمطر طعامًا، ولا الأشجار تساقط ثمارها في أفواهنا، ومهما يكن الحلم الذي نغرق فيه جميلًا أخاذًا، فلا مناص لنا من أن نستيقظ منه أحيانًا لنكافح في وجه ظروف الحياة الواقعية، أما مدمن الأحلام فلا يكافح إلا بقدر الحاجة، ولا شيء أكثر من ذلك، إنه يحصل على قوته بجهد تعوزه الحماسة والحرارة.

فإذا انقضى عمل يومه ارتد إلى أحلامه، سواء أدرك ذلك أم لم يدركه، وهو لا يفلح إلا في شيء واحد: ذلك أن يكسب في كل يوم ساعات من الفراغ يقضيها في تبديد حياته سدى، ولكن حلمه جميل سعيد، وهو تعويض عن فشله في كل ميدان من ميادين الحياة، ومن ثم فهو يتابعه ويحرص عليه. ولما كانت السعادة هي الهدف الحقيقي، فإنه لا يستطيع أن يدرك أن تحقيق قدر من النجاح في دنيا الحقيقة، يتيح من

السعادة أكثر مما تتيحه سنوات يقضيها في الأحلام ولا شيء سواها.

وخليق بنا أن نذكر أن ثمار الفشل ثمار حقيقية لها وجود، فذاك يسهل علينا مهمة مواجهتها كشيء له وجود فعلًا، وليس مجرد حلم في الذهن أو في الخاطر.

فمثلًا إذا اجتهد إنسان في شيء بالقدر الذي يسمح له بأن يعتذر بأنه (حاول) وأخفق، ففي وسعه عندئذ أن يكف يديه آمنًا ما بقي له من عمر، في ميسوره حينئذ أن يعتذر بأنه (حاول)، ولكنه وجد أنه تنقصه الصفات التي تحقق النجاح، ويبدو ما نسمعه من مثل هذا الرجل صادقًا مؤثرًا، وليس ثمة من سبيل لأن ندلل على أن قوله هذا خلو من الحقيقة! وإذن فقد أعفى المعتذر بهذا العذر نفسه من مواصلة بذل الجهد بقية حياته، فإذا كنت كهذا الرجل، فإنك تنظر إلى كفاح الآخرين بعين نصف مهتمة ونصف حاسدة، تستمتع بثمار نجاحهم، ولكن استمتاعك يكون أوفر بمرأى الفاشلين الذين يتخذون مكانهم إلى جوارك ينظرون كما تنظر!

يقول لك اللا وعي: "لماذا لا تكف، وتظل تحس ما بقي لك من عمر أنك إن حاولت مرة أخرى أصبت ما تصبو إليه؟"، وتتحول عندئذ إلى ناقد لاذع بصعب إرضاؤه، ويسعه أن يشير إلى أرفع المثل والمستويات التي ما يزال يسعى إليها الساعون، وقد علا ثيابهم تراب الطريق، مستويات من الرفعة ومن بعد المنال بحيث تحس أن القصور عند بلوغها أكرم من نجاح سهل هين! ويصبح المجد الذي كنت خليقًا ببلوغه، والثراء الذي كنت جديرًا بتحقيقه، والروائع التي كنت قمينًا بإبداعها، تصبح هذه كلها في

أحلامك وخواطرك، وفي أعين الناس الذين ينظرون الأمور نظرتك، أهم بكثير من النجاح في حد ذاته، أو قد تصبح مساعدًا للعاملين المجدين، ولعل هذا أخف صنوفه الفشل أو أنجح أنواعه.

ولكن تذكر في كل حالة من هذه، أنك على الأقل قد اجتنبت الكفاح والألم والإذلال، الذين عساهم يأتون في ركاب الجهد المبذول، وتفاديت أن يصبح الشيء الذي كدحت من أجله متى تحقق محل ازدراء أو سوء فهم، وتحاشيت حسد الناس الذين يتعين عليك -لكي تنجح- أن تتفوق عليهم وتتجاوزهم، وتجنبت النقد والعداوة. لن ينالك عندئذ شر الحاسدين لكل نجاح مهما كان ضئيلًا، ولن يتحتم عليك أن تحاج الحاقدين وتعزز جدالك إياهم بالآراء والأسانيد، أو أبعد من هذا وأعمق، لن يتاح لك أن ترى الفارق بين ما أمكنك أن تصنع وبين ما أملت في أن تصنع، وهو فارق موجود دائمًا، لعل حكمته أن يحتفظ الناجح بفضيلة التواضع.

والملاحظ أن لهذه العوامل الباعثة على الألم والضيق التي تجنبناها بفشلنا أهمية كبرى؛ فإنها تلقي ضوءًا غامرًا حين نسأل: "لماذا اخترنا أن نفشل؟ ولماذا فضلنا الفشل على النجاح؟"، وإذن فحين تفشل فأنت تنعم عندئذ بثمرات حقيقية، تتمثل في تفاديك التعب والعناء وإثباط العزيمة، واعتبار المزاج التي يلاقيها كل ساعٍ مجد إذا عاكسته الظروف وواجهته الصعاب. فإذا سمعت بنجاح شخص في الميدان الذي اخترته لنفسك، عزيت نفسك قائلًا إنك لو صحت عزيمتك على المحاولة لتفوقت عليه واكتسحته.

أو لعل العزاء عن الفشل يكون بالاحتجاج بأنك لا تريد أن تؤذي من تحب بنجاحك، وهذه هي أشيع ثمار الفشل بين النساء خاصة، أي بين أبناء المشاهير أو بين تلاميذ الأساتذة الجهابذة.

على أن الحقيقة أن أولئك الذين يخشون إيذاء الأحباء، يتخذون هذا العذر لشيء لا يقدمون عليه قط، إنهم لا يحاولون أبدًا، وإنما يكتفون بالتشرف بهذا الاعتذار المطلي، وينسون سماحة الحب وكرمه.

ومع الفشل يفلت المرء من الهمسات والشائعات والتقولات والتجريحات التي تلاحق كل نجاح، فإذا اشتط المرء في خوف هذه الهمسات والتجريحات فهو عندئذ مريض النفس، ولكن هذا الخوف ماثل وراء حالات لا تحصى من القعود عن بذل الجهد في سبيل النجاح. وما برح اللامعون هدفًا لتجريح المغمورين؛ فأما القلة القليلة التي يهمك رأيها فستعرف الحقيقة، وأما من عداهم –على كثرتهم– فلا أهمية لهم! ومع ذلك فالكثيرون ينسحبون من الحياة النشطة؛ لا ليندمجوا في حياة أعمق، وإنما ليجتنبوا وحسب أقاويل الناس وحب استطلاعهم.

ثم إنك متى فشلت تحولت رفيقًا أطيب عشرة مما لو كنت ناجحًا، فالذين يبلغون النجاح دائبو العمل، ليس في وقتهم متسع للهو أو للصحبة، وحتى في الأوقات التي ينتزعونها للترفيه يغدون مشتغلين ولو بجانب من جوانب عملهم، ولا يعول على الناجح كثيرًا في صحبة أو في حفلة، أو في غزوة للهو، ما دام ليس في عقله الباطن ما يدفعه إلى الفرار من واقع الحياة، وهو يحتفظ بظرفه وسحره وعاطفته لأولئك المرتبطة

حياتهم به برباط وثيق، وهو بين من ليس به صلة وثيقة أقرب إلى أن يبدو باردًا جامدًا، وما دمت لا تطيق فكرة وجود إنسان على هذه الأرض يسعه أن ينظر إليك نظرة عداوة أو سخرية، فإنك ستستمسك بأهداب الفشل استمساكًا.

ولعله يجدر بي هنا أن أسوق ثلاثة أمثلة لثلاث من ضحايا إرادة الفشل. وعسى أن يرى الناظر لأول وهلة في كل من هذه الأمثلة حياة حافلة بالنشاط الظاهر البين. على أنه متى دقق النظر، وقدر هؤلاء الضحايا تقديرًا شخصيًا، وحكم عليهم من إمكانياتهم ومقدراتهم الفردية، وجد الفشل هناك. فكل من هؤلاء الثلاثة يمتلك إمكانيات ومقدرات كفيلة بأن تبلغه ذروة السعادة والنجاح، ولكنه هدر طاقته ونشاطه بدلًا من ذلك في قهر أهدافه ونواياه. أما الأولى -وهي سيدة- فقد أدركت خطأها وصححته، وأما الثاني فقد مات دون أن يدري حقيقة مواهبه المضيعة، وهو أبعد ما يكون عن النجاح، وإن كان اسمه ذائعًا معروفًا.

مثلنا الأول لسيدة ترملت وهي في ميعة الصبا، كانت تنحدر من أسرة عرفت بحب العلم والدرس، وقد كانت طالبة نابهة في الجامعة، واعتزمت بالقليل من المال -الذي تركه لها زوجها لتعول نفسها وطفلتها- أن تعود إلى الجامعة لتدرس من أجل درجة الأستاذية ثم الدكتوراه، واستعدادًا للعمل كمدرسة، والواقع أنها -كما عرفت لفرط دهشتها فيما بعد، حينما أحدقت بها الصعاب من كل ناحية، فاضطرت لطلب النصح- إنما أرادت العودة إلى الجامعة لتعيش طفلة في دنيا الناضجين،

ومن ثم أطالت متعمدة مدة الدراسة إلى أطول أمد ممكن، فلما حصلت على (الدكتوراه)، بذلت ما لاح لعينيها ولأعين أصدقائها أنه مجهود صادق للوصول إلى مركز لائق، ولكنها في الحق لم تفلح إلا في اجتلاب نفور من كانوا خلقاء بأن يصبحوا رؤساءها، بما كانت تبديه من آراء غريبة مبتكرة في الاقتصاد، ولم يكن لآرائها تلك صلة بالمادة التي ستدرسها، ولم يكن قبول هذه الآراء أو رفضها ليغير قدر حبة من العمل الذي دعيت لأدائه، ولكنها أثارت النفور أينما ذهبت بجدالها الصاخب حول تلك الآراء، الأمر الذي كان ينفر منها أولئك الذين يستخدمونها.

وتنقلت من عمل إلى آخر، لا تمكث في كل منها أكثر من العام الذي ينص عليه العقد، وكانت مدرسة ممتازة خليقة بأن تكون شيئًا مذكورًا، ولكنها لم تكن قط تسعى مخلصة لأن تمكث في مكان واحد أمدًا أطول، وراحت تنحدر من الكليات إلى المدارس الأقل درجة فالأقل درجة، وإذ هي في انحدارها أنشأت لنفسها فلسفة في الحياة، لاءمت بها بين نفسها وبين انحدارها المنتظم! كانت تقول إننا نعيش عيشة باذخة لا داعي لها، نعلق فيها اهتمامًا كبيرًا على الملبس الطيب، والمأكل الطيب، والراحة الناعمة، وإلى أن بلغت أخيرًا المركز الذي سمح لها باستئجار شقة أنيقة في حي راقٍ، وتحطم عنصر من عناصر فلسفتها، ولكن سرعان ما حل محله عنصر آخر يتمثل في عزوفها عن دعوة الناس لزيارتها، وازدادت وحدة، وازدادت شذوذًا، وازدادت نار حماستها الزائفة تأججًا.

على أنه كان من حسن حظها أن كبرت طفلتها، فأصبحت فتاة

لماحة ذكية جذابة، لم تطبع فيها فلسفة أمها الزائفة أثرًا، بل كان لها أثر عكسي، فقد ساء الفتاة أن تعيش وفقا لمبادئ أمها في صرف الاهتمام عن المأكل والملبس، فلما دخلت دور المراهقة بدأت تكافح من أجل حياة أليق، وتطورت الأمور حتى بلغت حدًا تعين فيه على الأم إما أن تعير اعتراضات فتاتها أذنًا مصغية أو تفقدها، وتبددت سدى جهودها لإصلاح مركزها، وتصحيح نظراتها للأمور، فقد مضت ترتدي الخشن من الثياب، ومضت تتعلق بالمنصب الضئيل الذي لا يمنحها إلا مرتبًا ضئيلًا برغم علمها وخبرتها.

فلما أحست بالخطر محدقًا بها سعت لاستشارة طبيب نفسي، وهناك اكتشفت أنها إنما كانت توجه نشاطها كله، وطاقتها كلها لاجتلاب الفشل، ففي غير وعي منها ثارت على اضطرارها للعمل.

كانت تريد إما أن تظل طفلة أو تظل زوجة مدللة، وكشف لها الطبيب أن تصرفاتها إنما كانت تستهدف هدفين: الأول أن تجعل من الصعب عليها البقاء في العمل، والثاني أن تلفت إليها نظر الرجال. ولما كان يصعب عليها أن تصارح نفسها بأنها تريد في الواقع اقتناص زوج، فقد اتخذت لذلك أسلوبًا، هو في الحقيقة يعادل الرقة في لفت الأنظار وإن بدا نقيضًا لها، ذلك هو الدأب على الجدل والشجار. ووسعها بعد أن عرفت ما خفي لها من نفسها أن تصحح مركزها في الحياة، وإن اقتضاها ذلك جهدًا، ولكنها حققته وأصابت النجاح.

وفي الحالة الثانية كان الفشل من ذلك النوع الذي لا يكتفي الناس

بالنظر إليه في ابتسامة رقيقة وحسب، بل ينظرون إليه غاليًا على أنه –بطريقة غامضة– أنبل وأجمل من النجاح! صاحبه رجل متزن، يتمتع بعقل طيب، ولكنه مع ذلك افتقد النظر الثاقب النافذ.

عاش ومات في مسقط رأسه، وهو بلد صناعي صغير، وكانت مطالعاته كلها تنصب على الرحلات والمغامرات، وكان حديثه كله ينصب على الأماكن والبلاد التي لم يرها، وليس وجه الأمر أنه لم تتح له فرصة، بل لقد جاءته الفرصة، وحاولت أن تستدرجه إلى العمل والنشاط، كان يدير فرعًا لمؤسسة تجارية كبيرة، وكان ناجحًا في عمله بحيث أغرى النجاح مؤسسة تجارية أخرى في مدينة كبرى أن تعرض عليه منصب الإدارة بمرتب أفضل، وقبل العرض في فرح واغتباط، ولكنه ما لبث أن أرسل إلى المؤسسة رسالة يقول فيها إنه بعد إعادة النظر يخشى ألا يستطيع ملء المنصب الجديد الكبير.

لقد تغلب الجبن آخر الأمر، وفي السنوات القليلة التالية ظل يحطم كل اقتراح، بل كل وسيلة لتحسين مركزه، مبديًا الخوف في كل مرة من الإقدام على تجربة الاقتراح الجديد، أو الوسيلة الجديدة. وبعد ذلك بقليل كان قد أصبح من التحفظ والجمود بحيث أحالته المؤسسة إلى المعاش وأصبح منذ ذلك الحين فيلسوف البلد الصغير المدلل الأثير.

وقد رثاه عضو في مجلس الشيوخ حين مات، وثقل المصاب فيه على أهل البلدة جميعا حتى عز عليهم العزاء، وتكتمل الصورة الحزينة، إذا عرفنا أن زوجته كانت قد سبقته إلى عالم البغاء قبل عشر سنوات، وقد هد كيانها

التعب والنصب، وأن أحد ولديه لم يتعد المرحلة الأولى في الدراسة، برغم أنه كأبيه يتمتع بعقل طيب، وأن ابنه الثاني اضطر إلى العمل ليكمل دراسته في الجامعة، وبهذا كتب عليه أن يظل موزع الطاقة والنشاط، وأن ابنته تزوجت على غير حب؛ فرارًا من بيت ليس فيه ما هو متوفر في سائر البيوت من وسائل الراحة والرفاهية.

ودعنا هنا نوضح أمرًا مهمًا، ذلك أن الزعم بأن النجاح الأمين ليس دائمًا مثار زهو، إنما هو زعم خطأ، وكثيرًا ما نسمع أو كثيرًا ما أريد بنا أن نعتقد بأن النجاح ليس دائمًا هو كل شيء، إما أن يكون هناك أفضل من تحقيق ما أمل المرء في تحقيقه، وينعم في مقابل ذلك بجزاء، قد يتمثل حينًا في رضا الناس عنه، وحينًا في إحساسه بأنه أسدى للدنيا شيئًا، وأسهم في جعلها أرغد وألين، وحينًا آخر في المال أو الثراء في مقابل ما أسداه من خدمة للدنيا والناس. أقول إما أن يكون هناك ما هو أفضل، وإما أن يكون هذا النجاح لا يستحق الزهو دائمًا، فهذا تفلسف لا يغني من شيء.

وفي ذلك يقول (وليم ارنست هوكنج)، في كتابه القيم (الطبيعة الإنسانية تصنع من جديد): "لو أن امتلاك ثمار الأرض جميعًا هو المركز الطبيعي المقدر لإنسان أن يبلغه، فلماذا يعرف المرء، وقد بلغ هذا المركز وأبلى في سبيله خير البلاء، مظهرًا مقدرة فنية وموهبة رفيعة، لماذا يعزف عن تقبل جزاء بلائه، ما دام قد نجح وأفلح؟".

والمثل الثالث لرجل لو كشفت عن اسمه لعرفه الأكثرون، ولكنه برغم

ذلك مثل على إرادة الفشل وكيف تعمل. هو كاتب ينحدر من صلب كاتب، وقد حالفه السعد في البداية، حتى إنه لم يدرِ شيئًا عن الكفاح الذي هو مقدمة لنجاح أكثر الكتاب، وبرغم ذلك فهو في الوقت نفسه يعيش في خوف مقيم من السقوط، بل يعيش ألعوبة في يد غريزة تدفعه إلى السقوط دفعًا وهو لا يدري، إنه لا يقدم على العمل إلا حين يصبح في أمس الحاجة للمال، وهنالك يندفع إلى الكتابة بجنون، مرهقًا نفسه إلى أقصى حد، حتى تنال منه سموم التعب، ويصبح بالمريض أشبه، ويمضي الوقت الذي يعقب إنجازه العمل ينشد النقاهة. وقد حاول –بناء على مشورة طبيب نفسي– أن يواصل الكتابة بطريقة منظمة حين لا تمس حاجته إلى المال، فيضطر إلى إرهاق نفسه هذا الإرهاق. ولكن قصصه كانت تخرج فجة رديئة لا تصلح للنشر حتى يعيد كتابتها، وطبيعي أن قراءه لا يعرفون شيئًا عن جهوده هذه المضيعة، ولا عن الوقت الذي يتبدد هباء في إعادة صياغة ما كتب.

وكشف التحليل النفسي لهذا الكاتب عن أن ثمة تصميمًا قويًا في أعماقه يدعوه للفشل، محتجًا بحجتين: الأولى أنه يجبن عن التفوق على أبيه الذي كان يمتهن المهنة نفسها، والثانية خاطر لا واعٍ يذكره بأنه لو رفضت قصصه فسوف يتنحى هنالك عن الكتابة ويكتفي بالأحلام والأوهام! ذلك أن العقل اللا واعي لا يعرف شيئًا عن الحقيقة الواقعة التي يجب أن يعيش بها كل فرد: (اعمل أو مت!). على أن هذا الكاتب المعذب كان له من تجاربه ما يكفي لاطلاعه على حقيقة مشكلته، وبالتالي إنقاذه منها، فحين كانت تستبد به الحاجة للمال وتغلق في وجهه أبواب الاقتراض، أو

بعبارة أخرى حين كانت تواتيه (شجاعة اليأس) كان ينتج إنتاجًا طيبًا رائعًا، وكان هذا يكفي -كما قلت- لأن يستنتج منه حقيقة مشكلته، ولكنه، على العكس اتخذ لنفسه فلسفة تزيد استمساكه بهذه الطريقة، إذ كان يقول أن أملأ لحظاته بالحظ هي اللحظة الأخيرة.

وإذا دققنا النظر في أمثلة الفشل الثلاثة السالفة، وجدنا أن الفشل في كل مرة كان يعود بثمار حقيقية، تمثلت في الهروب من المجهود الناضج لكسب وقت ينفق في الأحلام والأوهام، ولم تكن تبذل ثمة محاولة لتغيير هذا النموذج المصطنع في الحياة إلا حين يصبح الحرمان أشد إيلامًا من النجاح.

ونحن جميعًا نخلق لأنفسنا مصاعب كهذه التي ذكرناها في الأمثلة السالفة: نتجنب العمل ونضيع الفرص. ألم يحدث أن أرجعت الطرف في حياتك يومًا وقلت: "لو أنني فعلت هذا أو ذاك منذ خمس سنوات مضت لكنت اليوم أهنأ حالًا؟ وقد كانت الفرصة متاحة، فلم لم ترها؟ أو هل أنت متأكد أنك اللحظة لا تغمض عينيك عن فرصة، لكي تراها في مستقبل أيامك بعد أن تكون قد ولت وأدبرت؟ أو لا تحس الساعة أثرًا لإرادة الفشل في حياتك؟

ولكن ثمرات النجاح أوفر وأشهى، فأضأل عمل متى أحسنته، وأقل مهمة متي أنجزتها على أحسن وجه، يجلبان لك لحظة واحدة من السعادة هي خير من كل ما يمر عليك من لحظات مع الفشل! وإحساس المرء بأنه يقاس بقياس صحيح بدلًا من مقاييس متغيرة متبدلة تصنعها الأحلام

وتصورها الأوهام، كإحساس من وضع قدميه على اليابسة بعد أن ظل يضرب في البحر أسابيع، وليس إلا أولئك الذين يؤدون عملهم كأحسن ما يكون الأداء هم الذين يتحررون من الذعر الذي يعرفه الواهمون إذا ما فتحوا أعينهم على حقائق الحياة.

وقد يبدو (عنب) الحقيقة في رأي الخيال (حصرمًا)، ولكن الطعم الحقيقي لا يستبين إلا لمن يتذوقه.

الفصل الخامس

تصحيح الاتجاه

برغم إرادة الفشل، وبرغم ثمار الفشل، فإن النجاح هو الهدف الطبيعي للمرء في الحياة. وطاقة النشاط إنما جعلت؛ لا لتنفق في الخمول والجمود، ولا في الجهد العقيم، ولا في العمل الذي لا طائل وراءه، وإنما لتخدم فكرة رفيعة لا نحققها إلا حين يكتمل لنا النضج.

أما ما هي هذه الفكرة، فإنها تختلف من فرد إلى آخر، وهي تنمو وتتطور مع نمو الفرد وتطوره، وليس في وسع شخص غريب عنا أن يملي علينا مواصفات نجاحنا أو يدلي لنا بتعريف له، فعسى أن يتمثل النجاح لفرد في الشهرة وذيوع الصيت، ولآخر في المال والثروة. وقد يعد العالم البحاثة نفسه ناجحًا –ويكون محقًا– إذا أضاف شيئًا جديدًا –وإن دقّ– إلى الحقائق التي جمعها العلم وتوصل إليها، أو إذا تناول فرضًا علميًا وأحاله حقيقة ثابتة، وقد لا يذيع اسم هذا العالم إلا في نطاق علمي ضيق، وقد لا يذيع إطلاقًا حتى في هذا النطاق الضيق، ولكنه مع ذلك قد حقق الهدف الذي عمل من أجله، ومن ثم فقد نجح؛ لأنه أصاب ما أعد نفسه لإصابته.

والممثلة التي تبلغ الذروة في فنها يساوي نجاحها نجاح أم في بناء أسرة كبيرة، يتمتع أفرادها بالصحة الطيبة والخلق القويم. ورجل الدين الذي

يتفانى في صمت في خدمة دينه، نجاحه كنجاح العبقري الذي يعرفه أكثر معاصريه. وقد تكون لفرد فكرة النجاح لا ترتبط بسبب بأفكارنا عن النجاح، حتى لنعجز عن الوقوف على السبب الذي دفع به إلى هذا الميدان، فما لم نكن قد تجردنا تمامًا من الخيال، فإننا نعده ناجحًا ولا ريب حين نراه يحيا حياة المسؤولية والنشاط والإنتاج والنفع والسعادة، مستغلًا فيما يعمل أقصى إمكانياته ومواهبه.

وتقديم تعريف محدد للنجاح يتنافى مع الغرض الذي من أجله كتب هذا الكتاب. فضعف ثقتنا في هذه الكلمة يعود أكثره إلى عدم إدراكنا لمدى اتساع آفاق النجاح، ففي نهاية طور المراهقة يكون الفرد منا قد جمع عن نفسه وفرة من المعلومات، لو أنه اختبرها عملًا بالنصيحة الخالدة: "اعرف نفسك" لوسعه أن يتبين مثله الأعلى في الحياة الطيبة الراضية.

وإنه ليجب أن يهدف التعليم إلى مساعدة كل صبي على استخلاص مفاتيح مستقبله من معرفته بنفسه وأوجه التفوق فيه، كما يجب أن يُبصّر الطلاب –وهم في هذه السن الغضة– بالضرر الذي قد ينجم عن عشق البطولة، والتعلق بأهداب صفات وإمكانيات لا تتوفر في كل فرد على السواء، وأن يصحح في أذهانهم الخطأ الشائع القائل بأن ما يدفع فردًا إلى النجاح خليق بأن يدفع الآخر إليه، على أنه برغم الاضطراب الذي يزج بالطفل فيه، وبرغم الخطأ الذي يلابس ما يقال له عن النجاح ومقتضياته ووسائله، وبرغم ميله إلى محاكاة آمال أبيه أو مدرسيه؛ بالرغم من هذا كله، ما إن يبلغ الفرد منا العشرين أو يتخطاها بقليل حتى يدرك ما هو أهل له،

وما هو خليق بأدائه لو توفرت له الخبرة وسنحت الفرصة.

وإنه ليجدر بك أن تذكر أنك ما لم تبالغ في تقدير صفاتك وإمكانياتك، فسوف تجد فكرتك عن النجاح في نطاق تلك الأشياء التي تستطيع أداءها. ونحن عادة نخفق في تقدير إمكانياتنا ونبخسها قيمتها. وسوف نناقش أسباب ذلك فيما بعد، ولكن يكفي أن نقول هنا أن الأقلية جدًا هم الذين يعتقدون أنهم صالحون لأعمال تفوق بكثير مواهبهم وإمكانياتهم.

وأحب أن أوضح أنني لا أريد في هذه الصفحات أن أدعك تستبدل بفكرتك عن النجاح فكرة مثالية رفيعة، كما أنني لا أريد في الوقت نفسه أن أدعك تطامن آمالك وتهون مطامحك؛ لكي يصبح في ميسورك تحقيقها، وإنما أنا على العكس أريدك أن تستعيد في ذهنك الصورة الأولى التي رسمتها لهدفك، والحلم الميسور التحقيق الذي تصورته في خيالك زمنًا، أريدك أن تستعيده واضحًا بينًا نابضًا بالحياة، فهنالك يصبح تحقيقه أقرب وأدنى.

والآن وقد ناقشنا التيارات المركبة في طبيعتنا، والتي تدفعنا إلى الاستسلام للفشل، وأدركنا أننا متى امتثلنا لهذه التيارات انسقنا في اتجاه الموت، دعنا نتأمل الآلية التي تعمل لتعوقنا عن بذل الجهد الذي لا بد من بذله لكي ننجح.

لقد شاع بيننا القول بأننا نتعلم عن طريق (التجربة والخطأ)، أي أننا

نتعلم حين نستكشف أن عملنا في اتجاه لا ينتهي بتحقيق الهدف الذي أردناه، فنتحول إلى اتجاه آخر، وقد نعيد الكرة مرات عدة حتى نهتدي إلى الاتجاه الذي يوصلنا إلى هدفنا فنلتزمه.

تلك هي الصورة التي تتمثل في أذهاننا لطريقة (التجربة والخطأ)، وهي في مجملها سديدة، ولكنها تغض النظر عن عامل، وإن تجاهلناه إلا أن عقلنا الباطن لا يتجاهله، ذلك هو عامل الألم، فإننا نتحدث عن النجاح الذي تعقبه طريقة (التجربة والخطأ) كما لو كان هو وحده النتيجة التي نخرج بها من تجاربنا ومحاولاتنا، وكما لو كان يمحو من أذهاننا ذكريات الفشل التي لازمت محاولاتنا الأولى قبل أن نصيب النجاح، نعم لقد نجحنا أخيرًا، ولكننا جربنا الفشل، وعانينا معه السخرية أحيانًا، والألم أحيانًا، والمذلة أحيانا أخرى، وذاكرتنا لا تختزن النجاح الأخير وحسب، وإنما تختزن ذكريات الفشل والألم والمذلة أيضًا.

والعقل الباطن يفزع من الألم والمذلة، وهو يبذل أقصى ما يسمعه من جهد ليتجنب الألم، أكثر ما يفعل للحصول على المباهج والمسرات التي وراء الألم، وهنا نجد أنفسنا نجابه حقيقة واقعة مسؤولة –ولا شك– عن جمودنا وخمولنا، ونحن نمتثل لها ونخضع في الوقت الذي يتعين علينا فيه أن نعمل، وهدفنا على مرمى البصر منا. فبدلًا من أن ننشط للعمل، نقعد عنه لكي لا نواجه الألم أو حتى احتمال مواجهته، أو قد لا نقعد عن العمل ولكنا نزاول نشاطًا أسهل وأهون ما نحن خلقاء بمزاولته، أو قد نبدأ برنامجًا حتى نبلغ نقطة نذكر أننا قد أصابنا الألم في مثلها من قبل، فنتنحل

عذرًا أي عذر لننكص على أعقابنا مسرعين، أو ينتصر العقل الباطن البدائي.

ولا أحسب أن أحدًا يريد –لكي يتجنب ألمًا وقتيًا– أن ينغمس في فشل مروع باقٍ، وأن تضيع الفرصة تلو الفرصة، وأن يعرض نفسه لألم أكبر وأشد مما حاول اجتنابه، وفي ميسورنا لحسن الحظ، أن نسلم ذكرى الألم السابق أو المذلة السابقة للنوم، فلا تعود تقف عقبة دوننا والنجاح، ولا تدفعنا دفعًا إلى الفشل.

كيف؟ المسألة غاية في البساطة، بأن نتصرف كما لو كان من المستحيل أن نفشل. نعم، ذلك هو الطلسم السحري الذي يحول فشلنا إلى نجاح.

في ميسورك – مستعينًا بقدر معقول من الخيال– أن تمحو من نفسك كل ما يعتمل فيها من ضعف الثقة والجبن والخوف، وسوف تجد – متى استطعت– أن تجسم في خيالك الحالة الذهنية الكفيلة بدفعك في اتجاه النجاح الذي أعددت العدة له وأملت فيه، سوف تجد طاقة هائلة من النشاط والحيوية تنطلق من عقالها لتسخر في خدمتك، كما لو كان عقلك قد أطلق زفرة طويلة وهو يتنسم الحرية بعد الأسر، ويتمطى إلى آخر امتداده مستجمعًا قوته ونشاطه، تلك هي اللحظة التي تدعو المرء إلى الاعتقاد بأن في الأمر سحرًا، ولسوف يبدو له كأنما هو قد زود بإمكانيات ومقدرات أكثر مما كان يعتقد أنه يمتلك.

ثم يتدفق التيار، وهو بين لحظة وأخرى يزداد قوة وشدة، وقد يداخلك في مبدأ الأمر الخوف من أن يعود السحر فجأة كما انفك فجأة ولكن هذا لن يحدث، لأن الأمر ليس فيه سحر على الإطلاق، وإنما هي نفسك الحقة عدت إليها أو عادت إليك، وهذا هو ما كان يجب أن يكون منذ البداية، فإذا ذكرت هذا ووعيته خرجت من أفق إلى أفق أرحب، وتبدت لك إمكانيات أكثر، كأنما تتفتق بعضها عن بعض، ورأيت المستقبل الذي طمحت إليه على مرمى البصر، وقد يعتريك شيء من الارتباك وأنت ترى هذه الإمكانيات والمقدرات تبدو لعينيك، وتلك الآفاق تتفتق أمامك، ولكن هذا الارتباك سرعان ما يزول متى عمدت إلى تنظيم حياتك الجديدة.

وسوف تدرك هنالك أن قلقك وتوجسك ومخاوفك لم تكن مجرد أشياء سلبية، بل إنك حين تصرفت (كما لو كانت) تلك أشياء مهمة، أضفيت عليها أهمية، وأحلتها إلى حقائق واقعة، فنمت كما تنمو الطفيليات داخل الجسم على حساب صحة أعضائه جميعًا، وحين كنا نسمح لهذه الطفيليات بأن تمتص حيويتنا، فإنما كنا نبدد الحيوية التي كان يجب أن تتجه لتنميتنا ولدفعنا في طريق الحياة الصحيحة المثمرة، ونقدمها وقودًا لما يهدم العقل ويقوض نشاطه، بدلًا من أن نقدمها غذاء لعناصره الإنشائية البنائية. وإذن فحين تتفتح عينا المرء على تلك القوى والإمكانيات الجديدة، حين يكف عن تغذية مخاوفه، فإنما تتفتحان على قوى وإمكانيات كانت موجودة طول الوقت، ولكنه لم يكن يجد الطاقة التي تعينه على استكشافها، إنه يلفي نفسه فجأة يمتلك مقدرات لم يكن

يظن أنها ترقد في أعماقه، وهو هنا يحسبه قد تلقاها لتوه.

ويلي ذلك أن يحس المرء -على عكس ما كان يحس من قبل- أنه متحرر من التعب، سوف يجد أنه يعمل أكثر مما كان يعمل من قبل، ومع ذلك لا يحس التعب، ولا يحس الاكتئاب في نهاية الأمر، فأمامه دائمًا الكثير مما يتطلب الإنجاز، وهو يراه واضحًا متجليًا، ومن ثم فليست أمامه فرصة للاكتئاب، فحين يثبت العقل نظره على الماضي فلا يرى إلا الفرص التي سنحت وراحت، ولا ينظر إلا ما كان خليقًا بأن يقع ويُنجز، فهو بطبيعة الحال عاجز عندئذ عن أن يتطلع إلى المستقبل ويرتاد الطرق المفضية إليه، ولكنك متى حررته من هذه النظرة التي لا طائل وراءها وأعفيته من هذا العبء الذي لا جدوى منه، جزاك أجزل الجزاء، وأثبت لك مقدرته، فتخطى كل العقبات التي بدا لك من قبل أنه ليس في ميسوره تخطيها.

والانتقال من عمل ناجح إلى آخر بحيث لا تضيع فيما بينها وقتًا ولا تبدد نشاطًا، واعتياد السهولة التي تؤدي بها العمل، وتعلم تقدير ما أنجزت بقدره وقيمته الحقة= كل ذلك يتطلب من المرء أن يأخذ نفسه بالتعلم والتدرب، ولكنه سيجد نفسه في الطريق بعد أيام قلائل من التحرر، حين يرى أنه يعمل ما يريد، وينفق فيها ويعمل وقت أطول مما كان ينفق من قبل، ومع ذلك لا يستشعر تعبًا، ويرى أمامه الكثير مما يتطلب الإنجاز ويمتلئ لذلك غبطة وسرورًا، فلا خطر عليه عندئذ من النكوص، ولا خطر عليه من أن يصبح عمله الأول الناجح، عمله الأول والأخير.

وإذا كنت الآن وأنت تطالع هذه السطور تحسب أنني أدعوك لخداع نفسك وإيهامها بالنجاح، فأنت مخطئ، فنحن في حياتنا اليومية عمليون تجريبيون، فما يفضي إلى نتيجة تقبلناه حقيقة عملية واقعة، ويصبح أساسًا لنشاطنا في المستقبل. قال "وليم جيس": "مقياس صدق أفكارنا هو نجاحها في أداء وظيفتها" وقال "هانز فايهنجر" في كتابه "فلسفة كما لو كان": "من الواضح الجلي أننا في شتى أمور حياتنا يتعين علينا أن نتصرف (كما لو كان) هذا الأمر أو ذاك حقيقة واقعة، فإذا أصررنا بدلًا من ذلك، على أن نتحقق من (حقيقة) هذه الحقيقة أو تلك، فلن يبقى أمامنا متسع لكي نعمل. وما دمت قد جربت الحياة غير المثمرة ولا المجدية، أي تصرفت (كما لو كنت) تبغي الفشل، فلماذا لا تفعل العكس لتبلغ الحياة المثمرة المجدية، فتتصرف (كما لو كنت) تبغي النجاح! على الأقل فلسفتك هنا فلسفة صحيحة سليمة، فهي تدعو إلى العمل والإنجاز، وهي تتجه اتجاهًا سديدًا، فهي تجعل لك النجاح حقيقة واقعة.

إن قانون الطبيعة ما برح على العهد به دائمًا، فمن يعمل تواتيه القوة، ومن لا يعمل تهرب القوة منه.

الفصل السادس

نحو الهدف

إذا كنت ممن يتمتعون بالخيال الخصب، لعلك قد عرفت الطريق بمجرد أن سقت لك هذه العبارة في الفصل السابق: تصرف كما لو كان مستحيلًا أن تفشل! فإذا لم تكن، أو كان الفشل قد أضر بك ضررًا بليغًا، فعسى أن تجد صعوبة في إدراك الطريق، ولكنها صعوبة في الوسع تذليلها.

ولأبسط لك الفكرة أقول: بدلًا من أن تحاول أن تبدأ، أو تقسم أن تبدأ، أو تخدع نفسك بالتظاهر بأنك ستبدأ غدًا أو بعد غد، بدلًا من أن تمتثل لذكريات الألم والفشل السابقين، أنفق ما يلزمك من وقت في بناء اتجاهك الذهني، ذلك الاتجاه الذي تريد أن تبدأ به، والذي يسهل عليك البدء ويهونه.

لو أنك على موعد، فإنك لا تهرع إليه مشعث الشعر مشوش الهندام، وإنما أنت تنفق وقتًا لا بد منه في تمشيط شعرك، وغسل وجهك، وإحكام هندامك، وتنظيف ثيابك، بل في إظهار محاسنك ومداراة عيوبك، فإذا ذهبت إلى موعد حاولت أن تتصرف كما لو كنت دائما في أحسن حالاتك، وكما لو كان هذا المظهر اللائق هو طبيعتك، وأنت الآن على موعد (ذهني)، موعد مع نفسك الناجحة، فكيف تهندم هيئتك الذهنية لتخرج من الموعد بالثمار التي ترجوها؟

أولًا بأن ترسم لنفسك نموذجًا، أو تسوق لها مثالًا، فلكل إنسان فكرة عن النجاح، وقد كانت له دائمًا هذه الفكرة، فعد إليها وإن بدت لك صبيانية، فأنت في أمس الحاجة لأن تدع النجاح يسيطر على ذهنك وحواسك، استعد ذكرى النجاح الذي حققته —وإن كنت قد حققته صبيًا أو طالبًا في المدرسة– ولكن لا تنغمس في ذكرى النشوة التي أعقبت النجاح، وإنما اقتصر على إحساس الثقة الذي لازمك عندما أدركت أن في ميسورك أن تصنع شيئًا، وعندما أقدمت على صنع ما وجدت في نفسك القدرة على صنعه، واجتهد في أن تستحضر في مخيلتك كافة تفاصيل ذلك الظرف، ثم وجه خيالك هذا الاتجاه الذهني على العمل الراهن الذي بين يديك، أو الذي أملت في تحقيقه، فإذا وثقت تمام الثقة في أن العمل الراهن الذي بين يديك سيمضي إلى غايته في سهولة ويسر مضي العمل الماضي الذي أصبت فيه النجاح، وإذا علمت أن ما تبدؤه اليوم سيسير في طريقه على ما يرام منذ بدايته حتى غايته، فماذا يكون إحساسك؟ وكيف تتصرف؟ وماذا يكون اتجاهك الذهني وأنت تشرع في هذا العمل؟ ثبّت اهتمامك في ذلك، فذلك هو الاتجاه الذهني الذي يحفز إلى النجاح. وحتى تبلغ هذا الاتجاه لا تبدأ شيئًا، وإنما اجتهد في أن تبلغه بأسرع ما تستطيع.

فمتى بلغته فتشبث به فترة كما لو كنت تنتظر إشارة البدء، وفجأة تستشعر تحرر الطاقة وانطلاقها، فتلك هي إشارة البدء، ويسعك عندئذ أن تبدأ، ولسوف تجد أنك في غير حاجة لأن تواصل دفع نفسك وحفزها إلى العمل، فطاقتك المحررة المنطلقة ستدفعك هي نفسها إلى العمل، بل ستدفع العمل تلقائيًا إلى نهايته.

ولقد كان ذلك العبء الذي أضفته إلى كاهلك بغير داعٍ لدفع نفسك إلى العمل وإخراجها عن جمودها، هو الذي أوهمك بعجزك وقصورك، وجعلك تبدو لناظريك كمن يبحث في الضباب عن بغيته، وحدا بك إلى التوقف بين لحظة وأخرى؛ لتستغرق في شكوكك ومخاوفك وقلقك وذكريات ما مر بك من فشل، وإذن، فقبل أن تشرع، أخل الطريق مما يعترضه؛ بأن ترفض بل تصر على رفض كل خاطر ينزع بك إلى الفشل.

ثم اعمل، وانهمك في العمل حتى تحس التعب الحقيقي الذي لا تخطئ علاماته، أما أن تحسب تشتت اهتمامك بادرة من بوادر التعب، فذلك خطأ، فما توزع الاهتمام إلا ردة تحاولها إرادة الفشل لتعود بك إلى اتجاهك الذهني القديم، فإذا حدث هذا، فتوقف لحظات وقل لنفسك مؤكدًا: كلا، لن أفكر في هذا الاتجاه أبدًا ثم اعمد إلى العمل مرة أخرى، فإذا أحسست أن جسمك وذهنك يعترضان اعتراضًا صادقًا على المضي في العمل؛ لأنهما بذلا كل ما هما قادران على بذله من جهد، فتوقف وابحث عن أسباب الاسترخاء والاستجمام. فإذا حان فعلًا وقت الاسترخاء والاستجمام، فسوف تجد أنك تستمتع حقًّا باللهو والترفيه. وثمة أشخاص قد أضر بهم الفشل ضررًا بليغًا، بحيث يتعين عليهم أن يتبعوا هذه الطريقة لفترة معلومة كل يوم حتى يستعيدوا أخيرًا ثقتهم المطلقة بأنفسهم. والمعلمون والمربون يعلمون أن أفضل الطرق لبث الثقة في نفوس طلابهم الصغار هو أن يعهدوا إليهم أولًا بالهين البسيط من الأمور؛ ليكونوا أقدر على إنجازها فتنسكب الثقة في نفوسهم، وكما تقول "دوروثي كانفيلدفيشر" في كتيبها الموجه للآباء "الاعتماد على النفس": "إن النجاح أو الفشل في

الحياة الناضجة يعتمدان على مقدار الطاقة والشجاعة، والاعتماد على النفس التي يستغلها المرء لتحقيق أحلامه، والثقة بالنفس التي يتطلبها النجاح إنما تأتي من ذكرى نجاح سابق".

ويقول الأستاذ "هوكنج"في كتابه "الطبيعة الإنسانية تصنع من جديد": "تتألف التربية من طريقة العمل، وعدة أمثلة للنجاح تقدم للنشء. وما أسهل ما نحمل الطفل على تحقيق المعجزات متى عهدنا إليه أولًا بعمل هين يحقق فيه النجاح! وما أكثر ما نزيل من طريقه من صعوبات متى عودناه من البداية أن النجاح ممكن ميسور، فإذا زدنا ما نعهد به إليه صعوبة مرة بعد أخرى، دفعه انتشاؤه بنجاحه المتكرر إلى تخطي كافة الصعوبات، حتى ما حسبه هو في البداية صعب التخطي.

وإذن فحين تفتقد أنت ثقتك بنفسك، ففتش عن رغبة لم تحققها لسبب أو لآخر، فثمة عديد من هذه الرغبات في حياة كل إنسان. واتخذ تلك الرغبة موضعًا لمحاولاتك، وكل ما يلزمك في تلك المحاولات إما أن تجتهد في إخراج الرغبة من حيز الأحلام إلى حيز الواقع، وإما أن تصحح الطريقة إن كنت قد حاولت من قبل تحقيق هذه الرغبة.

وإليك بضعة أمثلة على كيفية تنمية مواهبك الثانوية، بقصد اكتساب الثقة بالنفس التي تلزمك في طريقك إلى النجاح.

في نيويورك طبيب ناجح مشهور، تعلم أخيرًا صناعة التماثيل من الصلصال، ثم اتجه إلى تعلم تلوين الآنية الفخارية، وقد فعل ذلك ليتيح

لنفسه تجربة النجاح الظاهر الملموس، إذ إن ميدان عمله اليومي – الطب النفسي– لم يكن يقتضيه إلا إعمال الذهن والتحليق في آفاق الأفكار والنظريات، وقد اتخذ هذه الهواية التي فتقتها موهبة كامنة فيه، فنجح فيها نجاحًا باهرًا. ولعلك تقول إنه نجح لأنه يمتلك موهبة للنحت أو للتلوين، ولكنه إذا كان يمتلك شيئًا قبل الإقبال على هوايته، فذلك هو (إحساسه) دائمًا بحبه للنحت والتلوين، ولكنه لم يمس الصلصال أبدًا قبل أن ينيف على الثلاثين! وكل ما فعله أنه عمد إلى رغبة كان يحسها كما يحس كل منا رغبة في وقت أو آخر، وحاول تحقيقها، فاكتسب المتعة والنجاح والثقة بالنفس.

وفي معهد الفنون بشيكاجو، حجرة أطلق عليها اسم رجل أعمال أقبل على الفن بعد أن أربى على الخمسين، واشترك يومًا بلوحاته في مسابقة فظفر بالجائزة الأولى، وثمة نادٍ الآن في شيكاجو يضم رجال الأعمال الذين جاوزوا منتصف العمر يدرسون فيه الفن، وينتجون أعمالًا فنية رائعة.

وثمة شابة في الثلاثين تعمل كاتبة في مؤسسة تجارية، كانت تحس دائمًا رغبة في العزف على البيانو، وذات يوم وبينما هي عائدة إلى دارها، دفعها إحساس قوي –لم تقاومه لحسن الحظ!– إلى بيت رأت على واجهته إعلانًا عن دروس تُعطى في الموسيقى، وكان نجاحها نسبيًا بطبيعة الحال، فهي لم تنفق في دراسة الموسيقى الوقت الذي تتطلبه هذه الدراسة، وهي لم تقبل عليها في سن مبكرة حتى يسعها تدريب أصابعها وعضلاتها، ولكنها نجحت

في إصابة هدفها، وقد تغيرت حياتها تمامًا عقب تلك اللحظة التي استجمعت فيها شجاعتها لتدلف إلى مدرسة الموسيقى! فإلى جانب المتعة التي أصابتها حين حققت رغبتها، فعرفت عن الموسيقى أكثر مما كانت تعرف، فقد تصرفت بطريقة ناضجة أكسبتها الثقة بالنفس في كل ناحية من نواحي حياتها.

وعسى أن تفيد هذه الأمثلة الثلاثة في إيضاح ما قصدت إليه، وفي إضاءة الطريق أمامك. فما يتعين عليك أن تفعله هو أن تخطو خطوة إيجابية لتحيل حلمًا من أحلامك، أو رغبة من رغباتك حقيقة واقعة.

لنفترض مثلًا أنك تريد السفر، ولم يقدر لك من قبل أن تحقق هذه الرغبة، فإذا أردت أن تُخرج هذه الرغبة من حيز الأحلام إلى حيز الواقع، فثمة أشياء لا بد من تحقيقها أولًا، فإذا لم تقبل على تحقيقها فذلك أسطع دليل على أنك تدع عقلك الباطن البدائي يوجه حياتك ويملي شروطه، بدلًا من عقلك الراجح.

فإذا كنت تبغي زيارة إيطاليا مثلًا، فإن متعتك بها تكون أوفر إذا ألممت بشيء من اللغة الإيطالية، أو بشيء من تاريخ البلاد. فهل تفعل ذلك؟ ومع ذلك فالسوق مليئة بالكتب المبسطة في اللغات والتاريخ، ثم ماذا يجب أيضا أن تحققه؟ الوقت والمال، وهما صنوان، فتوفير المال يحتاج إلى وقت، فبإصابتك أحدهما تصيب الآخر، فاشرع في ادخار المال، أو فكر فيما يمكن أن تصنعه في وقت فراغك ليدر عليك دخلًا إضافيًا. ومهما يشق عليك العمل الإضافي فإن رغبتك في السفر، وعلمك أن ما

تكسبه من مال سيخصص لتحقيق هذه الرغبة، كفيلان بتهوين هذه المشقة.

رغب صحفي في أن يسافر إلى إيطاليا، ولم يكن معه من المال ما يمكنه من تحقيق حلمه، ولا كان له وقت فراغ ينفقه في عمل إضافي، وسعى الرجل إلى صحيفة إيطالية تُطبع في أمريكا، ونشر إعلانًا عرض فيه أن يلقن دروسًا في الإنجليزية أو في الصحافة مقابل أن يتلقى دروسًا في الإيطالية، فما مضى عامان حتى كان في طريقه إلى إيطاليا بصفته مدرسًا لأحد أبناء أسر الإيطاليين؛ وهو اليوم يشغل منصبًا في السلك الدبلوماسي! وحقق الرجل بهذه الطريقة الأمل الذي داعبه طويلًا، ولم يكن يستطيع إلى تحقيقه سبيلًا لأنه يعيش في حدود دخله.

واحذر أن تنقلب خطواتك الأولى في سبيل تحقيق هدفك انغماسًا في أحلام اليقظة! بل "افعل في كل يوم شيئًا يدنيك من الهدف مهما يكن بعيدًا"، فإذا كان النحت ما تبغيه فتوقف غدًا عند محل رخيص واشترِ منه كمية من الصلصال، وإذا كان السفر، فأرسل غدًا في طلب نشرات السياحة.

ولا تتحدث في البداية لأحد عن هدفك، وإنما احصل أولًا على النتائج، فإذا أسرعت إلى التحدث بآمالك لا يسعك إلا أن تحس –عاجلًا أو آجلًا– كأن هناك مؤامرة لإحباط سعيك، وقد تكون فيما تحسّ مصيبًا، فأولئك الذين ما زالوا أسرى في قبضة أوهامهم، وعبيدًا في رق (إرادة الفشل) يزعجهم ويثيرهم مرأى أولئك الذين يكسرون قيودهم، وهم

خليقون بأن يتآمروا على إحباط محاولاتهم.

كذلك حين يستشعر العقل الباطن أن الزمام قد أفلت من يده، ولم تعد له الكلمة العليا، ولا بقيت له أحلامه وأوهامه يرتع فيها ويسبح، يعمد إلى المقاومة، ومن الوسائل الشائعة التي تتجلى فيها هذه المقاومة الفرار إلى الحكم والأمثال التي تبدو حصيفة راجحة، وما هي في الواقع إلا تعزية يوجهها الذين انتبذوا الحقيقة لأنفسهم.فإذا كنت حقًا تحرر نفسك من قيودك، فأنت إنما تدبر مؤامرة مع (الحقيقة)، لترى ما الذي يمكن أن تحصل عليه حقا إذا استخدمت في عملك من الشجاعة والإقدام أكثر مما كنت تستخدم من قبل، ولن تلبث إلا قليلًا، متى بدأت مخلصًا لا هيابًا ولا متشككًا، حتى تتحدث النتائج عن نفسها، مزودة إياك بكافة ما تطلبه من حجج وبراهين.

وأول ما توجهه لنفسك من أسئلة هو : "ما الذي ينبغي أن أفعله الآن إذا كان مستحيلًا حقًا أن أفشل؟" قد يكون ما تبتغيه السفر أو النحت أو الكتابة، وقد يكون شيئًا من مئات الأشياء الأخرى، فمهما يكن فإنك بشيء من التفكير تكتشف الخطوة الأولى، فإذا وقعت عليها وخطوتها تسأل نفسك مرة أخرى: "ما هي الخطوة الثانية؟" وهكذا حتى يستبين لك الهدف تمامًا، بل يأخذ في التشكل والنمو كما لو كانت له حياة مستقلة؛ وهنالك يسوقك أنت أمامه، بدلًا من أن تحمل أنت عبء سوقه.

ففي وقت من الأوقات سترى نفسك مندفعًا بـ (القصور الذاتي)،

تلك الطاقة التي أطلقتها منذ وقت غير بعيد، فالحياة مرنة إلى أقصى حد ممكن أن تتصوره -هكذا اعتاد طبيب نفسي أن يقول لمرضاه- وهي على التحقيق أشد مرونة مما تصورنا ونحن قعود عن العمل.

الفصل السابع

نصح وتحذير

قد يحسن قبل أن أستطرد أن أنبه إلى أشياء قد يخطئ البعض فيحسبني أدعو إليها؛ أود أن أسوق نصحًا وتحذيرًا، أنصحك أولًا ألا تحاول أن تسلم نفسك لنوم مغناطيسي أو ما يشبهه؛ لكي تمضي في طريقك إلى النجاح، ولا حتى ما يتفرع عن التنويم المغناطيسي من إيحاء ذاتي، كل ما يتطلبه الأمر أن تأخذ نفسك بشيء من الإرادة أولًا حتى تبلغ مرحلة التصميم، ثم تدع لخيالك الزمام: الخيال الذي يملؤه حلمك وأملك بحيث يحجب ما عداه من أسباب التشكيك والبلبلة والتخبط. والفرق بين ما أدعو إليه وبين الإيحاء الذاتي أن الأخير قد ينطوي على تخلية السبيل ما بين العقل ودنيا الحقيقة، كما هي الحال تمامًا مع أحلام اليقظة، وأنت فضلًا عن هذا، لا تستطيع أن تجعل نفسك دائمًا في حالة مغناطيسية تتيح استمرار الأسماء، ومن ثم فالإيحاء خليق بأن يزول أثره في يوم ما، وحتى لو لم يزل أثره فأنت في الأغلب غير قادر على أن تربط بين ما أوحيت به إلى نفسك وبين الحقيقة على شكل عمل أو سعي. وأنت ما لم تعمل وتسعَ فأنت بعيد عن النجاح شأنك في ذلك شأن المستغرق في خواطر وأحلام يقظته. ونحن إنما ننشد العمل الواثق الدائب المنطلق على سجيته متحررًا من كل قيد.

وأنصحك ثانيًا، ألا تلتزم طريقة قطع التأكيدات لنفسك، كأن تقول: "لا يمكن أن أفشل" أو "إنني ناجح في كل ما أفعله" وهكذا.. فهذه الطريقة أشبه بالتنويم الذاتي، ولها نفس عقمه لمن يتبعونه على غير فهم لمبادئه وفلسفته.

وقد يكون في فلسفة قطع التأكيدات ما يحمد، إذ هي ترى أن ثمة وحدة نهائية مما يبدو في طبائع الأشياء من (ثنائية) أو (تناقض). وهي تستهدف إبلاغنا هذه الوحدة برغم هذه الثنائية وهذا التناقض. ولكننا – مع هذا أو برغمه– تكيفنا ظروف شتى منها شخصياتنا، وحقائق الحياة الملموسة؛ ومن ثم فالآمن والأسلم أن نتصرف كما لو كانت (الثنائية) أو كان التناقض هما قانون الحياة، أي كما لو كان الخير والشر يتنازعان الأشياء على قدم المساواة.

وصحيح أن ثمة من نشؤوا على استخدام طريقة (قطع التأكيدات)، وعلى إحسان العمل بها، ولكن في مقابل كل واحد من هؤلاء مئة لا يسعهم استخدامها، أو يحسون بسخف أنفسهم حين يطلب إليهم استخدامها. فمن وجد في نفسه المقدرة على استخدام هذه الطريقة فبها ونعمت، وأما للمتشككين بطبعهم فهي عقيمة عقم التنويم الذاتي. وأنصحك ثالثًا بألا تندفع في ادعاء ما لم يحدث، كأن تحاول أن توهم الناس بأنك نجحت، أو تحيط نجاحًا ضئيلًا بهالة من التجسيم والتضخيم، وليس أخلق بأن يوهم سواك، على الأقل في البداية.

خلاصة نصائحي لك إذن هو أن تفعل ما سبق أن أسلفته، لا أدنى

ولا أكثر، أو "أن تتصرف كما لو كان مستحيلًا أن تفشل" وفوق ذلك، لا تظل تتعلق بوهم عن النجاح، ربما كان وهمًا أكثر تفصيلًا وأوضح معالم، ولكنه ما برح وهمًا كسابق أحلام يقظتك، وفرق بين الوهم والخيال.

قبل أن يخرج فرويد على العالم بنظريته، كتب الإيطالي "بيكو ديللا ميراندولا" بحثًا بعنوان (الخيال)، فرق فيه بين نوعين من الخيال: الأول يتجه إلى الماضي محاولًا إبقاء المرء في طفولته ذهنيًا، والثاني هو الخيال الذي نجده عند الرجل الناجح. وهو النوع الثاني الذي نريده حاضرًا، فإذا جعلت ذلك نصب عينيك لم يعد ثمة خطر عليك من أن تنزلق إلى عادته السابقة: الانغماس في الخواطر.

واذكر أن النجاح يعتمد على حالة إيجابية تسيطر على البدن والعقل، كما يعتمد على العمل المثابر، والشجاعة والإقدام، فذاك خير محك نفرق به بين الوهم وبين الخيال. فإذا أعقب ما تتمثله في ذهنك العمل الذي تطبعه الحماسة والمثابرة والإقدام، فذلك هو الخيال الصحيح، وأما ما يعطل النشاط ويتجه بك إلى الوراء، ويعوقك عن إحلال عادة طيبة محل أخرى معطلة، فهو موقف ذهني سلبي لا دخل للخيال السليم فيه.

لقد حددت لنفسك الساعات التي تعمل خلالها، وفي نطاق هذا الزمن وكجزء من العمل، بدأت أولًا فأصفيت أفق ذهنك، فمتى أسلمك هذا إلى حال من الغبطة والثقة والطمأنينة غدوت متأهبًا للمضي قدمًا.

الفصل الثامن

ادخر أنفاسك

قدمت فيما سبق نصحي بالإقلال من الكلام، وعسى أن يكون قد بدا للبعض أنني أعتقد أن الالتجاء إلى الصمت من مقومات النجاح، والواقع غير هذا، فأن تتكلم بما فيه الكفاية، وأن تتكلم كلامًا مقنعًا، وأن تقيم علائق الود والصداقة بمن حولك؛ تلك هي مقومات الحياة المثمرة الناجحة. ولكن الإسراف في الكلام سهل، وهذه السهولة هي التي تغري باختيار الوقت غير المناسب، أو باختيار الموضوع غير الملائم، والأمثلة الشائعة تبصر بخطر الاندفاع في الكلام، ومغبة الانسياق وراء الإسراف فيه، من هذه الأمثلة: "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من الذهب"، أو "أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا"، أو "الكلب النابح لا يعقر" وهكذا.. وكذلك سبقت أمثلة تمتدح الرجل الذي يتكلم بقدر، ويلوذ بالصمت الحكيم متي دعت الحاجة. وأحسب أن الظرف هنا مناسب لمناقشة الأسباب التي من أجلها امتدح الصمت.

لقد نصحت الأديان كلها بفرض الرقابة على اللسان، بل قد يتمادى أتباع أديان معينة فينذرون الصمت لفترة معلومة، أو ينذرونه طيلة حياتهم، ومن هؤلاء بعض الهنود الذين تفرض عليهم فلسفة دينهم التدرب، لا على فرض الرقابة على الكلام وحسب، بل على الأنفاس

أيضًا! ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن كلمة (نفس) في اللاتينية والأفريقية تطلق أيضًا بمعنى (روح)، إلا أن الكلمة الأولى مذكرة والثانية مؤنثة. وفي هذا أكثر من دلالة وأكثر من مغزى، فالتنفس من الآليات القليلة غير الإرادية في جسم الإنسان التي يسعنا أن نفرض عليها سيطرة إرادية، أي أنها بمعنى آخر تقع على الحدود بين الوعي واللا وعي، فالرجل الذي يتكلم متى شاء ويصمت متى شاء، رجل قوي الإرادة، فإذا امتلك (اللا وعي) زمامنا وأصبحنا تحت رحمته، تكلمنا حيث كنا نصمت لو كان لنا الخيار، وإنما ننساق عندئذ وراء الكلام تلبية لضغط يلح علينا، فنتحدث عن مشكلاتنا ومتاعبنا، أو ننتحل لأنفسنا الأعذار، أو نشكو من ظلم هين حتى لندهش أحيانًا حين نرى أن ما يستدره كلامنا من عطف المستمعين أكثر مما يتطلبه الموقف أو تستدعيه الشكوى! فمتى اكتشفنا هذا المنبع الذي نستقي منه العطف والإشفاق فقلّ أن يبلغ بنا النضج الحدَّ الذي يردنا عن استغلاله، ومن ثم يشتد في نفوسنا ساعد (الصبيانية)، ويبني نضجنا وتطورنا بالفشل والهزيمة.

ولعل من أسوأ مساوئ إرادة الفشل أنها تدفع ضحاياها دفعًا إلى السعي وراء النصح، حيث لا ضرورة ولا داعٍ، والسبب الكامن الدفين وراء طلب النصح (بغير ضرورة) هو أننا بذلك نحس الحماية، بل نحس التدليل برغم أننا لم نعد أطفالًا، وهذا بدوره يعني استزادتنا سلفًا من مبررات للفشل، فلو أننا عملنا بمشورة الآخرين ولم ننجح، فالواضح عندئذ أن الذنب ليس ذنبنا، ومن ثم تتاح الفرصة لأن نمضي في أحلامنا وخواطرنا، موهمين أنفسنا أننا لو اتبعنا إحساساتنا ومشاعرنا عوضًا عن

نصح الناجحين لنجحنا.

وما دامت أمثال هذه الدوافع موجودة فعلًا لا سبيل إلى نكرانها، فالأوفق إذن أن نفحص كل إحساس يدفعنا إلى طلب النصح كلما هممنا بطلبه، فإذا كان الدافع فوق الشبهات، فثمة سؤال أخير ينبغي أن يوجهه المرء لنفسه قبل أن يعمد لطلب النصح، وهو: "لو أني حللت هذه المشكلة بنفسي، فهل كل ما أخسره هو الوقت؟" فإذا كان جواب هذا السؤال بالإيجاب فالأفضل بصفة عامة هو أن يجتهد المرء في حل مشكلته بنفسه، اللهم إلا أن يكون الوقت الذي سيستغرقه من الضخامة بحيث لا يتناسب والنتائج المرتقبة المترتبة على حل المشكلة.

وإذا كنت رجلًا إنشائي التفكير، فسوف تدرك أن الوقت الذي تنفقه في إيجاد حل لمشكلة، أو لابتكار خطة تنتهجها ليس وقتًا مضيعًا، ونحن ميالون إلى اعتبار ما فعله "جوزيف كونراد" البولندي الذي غدا واحدًا من أقطاب الكتاب بالإنجليزية، و"شتاينمتز" عبقري الكهرباء، شبيهًا بالمعجزات، وقد حققا ما حققاه معتمدين على نفسيها. لقد كان اعتمادها على نفسيها ركنًا أساسيًا من أركان نجاحهما، ولكن الذي يحدث أننا نساعد بعضنا إلى حد أننا قد نجد أنفسنا في النهاية لا نصنع إلا القليل! وننظر إلى ما صنعناه، فإذا هو لا ينبع حقًا من ذات نفسنا، ولا يعبر عن شخصيتنا وأذواقنا، وإنما هو خليط من الأذواق والمواهب والوسائل، لا يتميز عن أشباهه في شيء.

وانظر اليوم إلى السيل المنهمر من القصص والروايات الذي يغرق

الأسواق، وانظر إلى الكلمات والرسوم في الإعلانات التي تحفل بها الصحف والمجلات، وإلى القصص المسلسلة، أو الرسوم الفكاهية التي لا تخلو منها صحيفة أو مجلة، تجد كأنها كلها قد أنتجها (مكتب مركزي)! ولكننا نمر على هذه كلها مر الكرام، وندخر إعجابنا لنضفيه على عمل يتميز بالأصالة، وبطبيعة التفرد والاختلاف.

وإذن فما ننفق من الوقت في سبيل ابتكار حل لمشكلتك، أو رسم نهج أصيل تنتهجه ليس وقتًا ضائعًا، وما تبذله في هذا السبيل من جهد، وما تلاقيه من عناء هو خير لك وأبقى، فإذا جعلت هذا نصب عينيك، فدعنا ننظر الآن فيما تصنع حين يحق لك أن تطلب النصح والمشورة.

أنت تعاني مشكلة حقة، فالخطوة الأولى إذن هي أن تدون مشكلتك على الورق، أي أن تصوغها في عبارات توضح معالمها وتحدد تفاصيلها، بحيث يسهل عليك أن تدركها وتحيط بها، أما لو أنك سمحت هذه المشكلة بأن تظل تدور في رأسك فستبدو لك أضخم وأكثر غموضًا مما لو تفحصتها عن قريب واختبرتها عن كثب، ثم ابحث بعد ذلك عن الناصح (الخبير) سواء كان صديقًا أو غريبًا، واجعل همك في البحث عن شخص تتقارب بينك وبينه الآراء ووجهات النظر، فذاك يسهل عليه أن يمحضك النصح، ويسهل عليك أن تقبل نصحه، فإذا ضربت له موعدًا فكن في حديثك مقتضبًا محددًا، ولا تكشف كافة جوانب المشكلة، وإنما مضمونها وحسب، ثم اتبع ما أسداه إليك من نصح حتى تحصل على نتائج بينة ملموسة، فإذا آنست من نفسك –وقد حضك النصح– ميلًا إلى أن

تطوح ذراعيك قائلًا: "كلا، لن يجديني هذا شيئًا"، فالأوفق لك عندئذ أن تتشكك في دوافعك! فمعنى هذا الرفض أنك تضمر في ذهنك خطة كنت ترجو من ناصحك أن يقرك على اتباعها، ولأضرب لك هنا مثلًا على الموقع الخطأ الذي قد يقفه المرء من النصح لعله يوضح أمامك الأمور.

هل شاهدت يومًا مدرسًا للرسم يلقي درسًا على طلبته؟! إنه كثيرًا ما يقع على خطأ في رسم تلميذ، هو في الوقت نفسه خطأ شائع بين سائر التلاميذ، وهنالك يجمع الطلبة حوله، ويمسك برسم التلميذ جاعلًا منه أنموذجًا ويذهب ينتقده، ويوضح خطأه، وكثيرًا ما يعمد إلى الممحاة فيمحو الخطأ، ويرسم ما كان ينبغي أن يرسم، ولو أنك اطلعت على أفئدة التلاميذ ساعتها لوجدت –لفرط العجب– أنهم جميعًا يفيدون من نقد الأستاذ وتوجيهه فيما عدا التلميذ الذي جعل خطأه أنموذجًا، فالتلميذ ساعتئذ قلق مضطرب مغيظ، محنق –أحيانًا إلى حد البكاء– شاعر أنه قد وضع موضع الهزء والإذلال، أي أنه على الجملة يستجيب لنصح الأستاذ استجابة صبيانية.

فإذا كنت أنت الذي يطلب النصح، أي لو أنك جعلت نفسك من ناصحك في موقف التلميذ من أستاذه، فاجتهد في أن تفيد من أخطائك بدلًا من أن تتعذب بسببها، واجتهد في أن تكون موضوعية محايدة وناصحك يبين لك المنهج الصحيح.

وإذا كنت ما زلت طالبًا في المدرسة، فالأرشد أن تنتهز كل فرصة لتوجيه الأسئلة الحصينة ثم تتبع ما يلقى إليك من توجيه، وفي النهاية –

وهذا من الأهمية بمكان– عد إلى الأستاذ بأنباء نجاحك أو فشلك، كنتيجة لتوجيهه، فليس في هذا فائدتك وحدك بل فائدة له أيضًا، ومن ثم لسائر التلاميذ، ما دام محك جدوى التوجيه وفائدته هو التجربة العملية. فإذا دأبت في إثر كل توجيه على الفشل، فالمسألة عندئذ أحد أمرين: إما أنك لا تعي تمامًا وجهة نظر الأستاذ، وإما أن هذا الأستاذ لا يصلح لك.

فإذا انتهت فترة تلمذتك، أو فترة عملك بتوجيه ناصح، فلا تعمد إلى توهين عزيمتك، أو إغراق نفسك في الشك، بحيث يتعين عليك أن تستمر في طلب النصح والتوجيه حتى في أتفه التفاصيل والإجراءات، وكل طبيب سواء كان بدنية أو نفسية، يعرف أن ثمة عددًا من المعذبين، الذين لا يفتؤون يوجهون إليه أتفه الأسئلة، بحيث يبدو كأنه لا أمل لهم في بلوغ النضج وهم على هذه الحال من قلة الحيلة وانعدام الوسيلة.

ولا يرحب بهؤلاء الشكائين إلا مشعوذ أو دجال، والشخص الذي لا يفتأ يتحين الفرص لإلقاء تبعة فشله على الغير، أو الذي لا يكبو أبدًا، بحيث يسعه أن يواجه مصاعبه ومشكلاته ويذللها، سيظل يسعى وراء النصيحة حتى آخر أيامه. وأحسب أن خير محك لترى إن كنت في طلبك النصح تتبع عادة عصبية تدفعك إلى الاعتماد على الغير، هو أن توجه إلى نفسك هذا السؤال: "أتراني أطلب هذه النصائح المتكررة لو تعين علي في كل مرة أن ادفع للنصيحة أجرًا؟".

وجميع المشاهير الذين تسلط عليهم الأضواء يتلقون من الأسئلة ومن طلبات النصح ما لا يزيد عليه، وهم عادة يجيبون وينصحون،

مفضلين تضييع وقتهم في ذلك على ردهم بالخيبة إنسانًا ربما كان موهوبًا، أو مبتدئًا شديد الحساسية، فإذا حدث أن امتنع أحدهم عن الجواب والنصح، وقد يحدث أحيانًا، فالأرجح أنه ليس مترفعًا ولا مغرورًا، وأنه كان ينصح ويجيب لو علم يقينًا أن السائل مخلص حقًا في سؤاله أو في طلبه النصح، ولكنه لم يعد يميز بين هذا وبين العصابي (المريض النفسي) محترف الاستفسار وطلب النصح، ومن ثم يقرر آخر الأمر السكوت، وهو يعزي نفسه عن هذا السكوت بوثوقه من أن أولئك السائلين المستفسرين قادرون حقًا على أداء نصيبهم من العمل، ولكنهم إنما يدأبون على السؤال؛ تغذية لإحساسهم بالحرمان أو طلبًا للعطف والامتنان، وأنهم إذا لم يتلقوا نصحًا ولا جوابًا سيجدون آخر الأمر وسيلة من ذات أنفسهم لحل مشكلاتهم.

وإذن فخليق بالمرء في تلك الفترة التي يجمع فيها المعلومات عن نفسه، أو يعيد فيها تقييمها وتقويها، أن يدخر الكلام والشكوى والسؤال وطلب النصح والاقتراحات.

فهو يريد أن يبلغ الدرجة التالية التي تتيح له أن يعمل في أي ظرف وفي كل ظرف، وهو لا يسعه أن يعرف دائمًا أن صديقه أو موضع ثقته سيظل في مركز يتيح له أن يعيره أذنًا واعية، عطوفًا كلما طلب إليه ذلك، وفضلًا عن ذلك فإنه متى اعتاد على أن يقصد ناصحًا كلما جد له جديد، باثًا بذلك في نفسه الإحساس بأن هذه خطوة لا بد منها لكي يمضي في العمل على وجه مرضٍ، فإنه إنما يضع بذلك أساس فشله المستقبلي.

ومهما يكن ميدان عملك، فإنك متى أنفقت كل لحظة في نشاط إيجابي، أصبحت لك حياة من صنعك أنت، هي خلاصة تجاربك وجماع خبرتك، وسوف ترى عندئذ أن ما طرأ لك في الماضي من مشكلات إنما طرأ لأنك كنت في موقف (الهاوي) أو (الجديد في الميدان)، ولأنك لم تكن لك خبرة شخصية في الميدان الذي اتخذته، ومن ثم بدت لك كل مشكلة كأنها فريدة في نوعها.

الفصل التاسع

مهمة الخيال

ناقشنا فيما سبق -إلى حد ما- أهمية الخيال في بناء حياة منتجة مثمرة، وقلنا إنه يتعين الاستعانة به لخلق جو ذهني لا بد منه، إذا أردنا أن نؤدي عملنا على أفضل وجه وأكمله. ولكن للخيال -فضلًا عن ذلك- منافع لا تحصى، وفي ميسوره أن يسدي إلينا العون في أمور شتى. ونحن ميالون في حياتنا اليومية إلى الظن بأن الخيال شيء مفيد حقًا للمشتغلين بالفن في كافة فروعه، وبأنه شيء لا فائدة منه -بل ربما كان العكس صحيحًا- في حياة الرجال العمليين. والمفهوم الشائع عندما يقال أن إنسانًا يستخدم خياله، أنه يأخذ عطلة (ذهنية) يقضيها في التكاسل والاسترخاء، فإذا ثاب أخيرًا إلى وعيه – والتحليق في الخيال كما يشاع بينا نقيض للوعي والتنبه- ألفى نفسه قد بدد وقته، وأضاع صلته بالوقائع، أو ضل في بيداء ليس له فيها مرشد ولا دليل، أو على الجملة قد لقي جزاء تخليه عن الرقابة على ذهنه، وإطلاقه يحلق كيف شاء وأين شاء. ومن ثم فنحن ننظر إلى الخيال نظرة التوجس، ونسعى جهدنا لرد أنفسنا عن الانغماس فيه، أو لمحوه إذا آثرنا التطرف والمغالاة.

أما أن الخيال قد يكون عونًا لنا أي عون في أهم الأمور وأعظمها، ففكرة يقابلها الكثيرون بالاستنكار؛ ذلك لأنهم يرون الخيال ملكة ميالة

للجموح إذا أرخينا المقود، نزاعة إلى اتباع قوانينها ورغباتها التي لا سبيل لنا إلى السيطرة عليها أو توجيهها، عصية على رقابة العقل والإرادة، وهم محقون إذا اتصف الخيال بما يصفوه، ولكنا متى أمكننا السيطرة على هذه الملكة وتوجيهها، وهبتنا الخيال الإنشائي الناضج، أو (الملكة الروحية) كما سماها "جوبير" ، ولننظر فيما يسع الخيال أن يسديه لنا من منافع وفوائد:

في وسعه أن يجعلنا ننظر إلى أنفسنا عن بعد، متجردين من عواطفنا وهواجسنا التي كثيرًا ما تعوقنا عن النظر إلى أنفسنا نظرة موضوعية فاحصة، فمتي وسعنا هذا، فربما اكتشفنا أننا ندأب على تعطيل مصالحنا، ومن ثم يمكننا أن نحل محل النشاط السلبي المعطل نشاطًا إيجابيًا دافعًا.

وفي ميسوره أن يمحص لنا شخصية منافس أو غريم، كما يمحص المؤلف شخصية يريد أن يدمجها في إحدى رواياته، وهنالك نستطيع أن نقف على دوافعه وحوافزه، ومن ثم نوفر على أنفسنا الوقوع في أخطاء، أو إتاحة الفرص للمنافس كي يصيبنا بالضرر. وفي ميسور الخيال، بتوجيه الإرادة وبالتعاون مع العقل، أن يستكشف لجهودنا ميادين جديدة، وأن يزودنا بنشاط جديد نقبل به على أعمالنا، معوضًا ما نالنا من إعياء أو ما أصابتنا به الرتابة من ملل. في وسعه أن يجد أسواقًا لإنتاجنا، ووسائل جديدة نستغل فيها مقدراتنا وإمكانياتنا. ولنستطرد قليلًا في تفصيل ما أجملناه.

لسنا نحتاج أن ننتمي إلى وجهة النظر القائلة بأن (العلم يأتي بالتجربة). فمتى اكتشفنا أن أكثر خوفنا من الإقدام على وجه جديد من أوجه النشاط، إنما مرده إلى خوف تكرار الألم الذي صادفناه من قبل حين

شرعنا في المضي، وسعنا أن نغذ السير في طريق (التجربة والخطأ) في خيالنا، متحاشين بذلك الألم، في وسعنا أن نتعلم المضي قدمًا في خيالنا، ومن ثم نوفر على أنفسنا كثيرًا من التهور والعقم، وتبديد الوقت والنشاط.

إننا أولًا نستطيع أن نستخدم الخيال لكي نرى أنفسنا وعملنا عن بعد،وكلنا نعلم كيف يربط الطفل نفسه ربطًا تامًا محكمًا بكل ما يملك وما يفعل، وبكل من يبدي به اهتمامًا، وإنه ليثور إذا طلب إليه أن يُشرك غيره فيا يملك، أو أن يتخلى عن لعبة أو دمية، أو إذا أمطرت السماء في اليوم الذي ارتقبه للنزهة، وإذا تركته أمه أو مربيته قبل أن يستسلم للنوم، حسب أنه قد خدع خديعة كبرى؛ بل الواقع أن التربية في مراحلها الأولى تضع بين أهدافها تعويد الطفل المركز في ذاته بحكم المرحلة التي يجتازها النظر إلى نفسه وإلى علاقاته بالدنيا والناس، نظرة أقرب إلى الموضوعية وإلى التجرد من الذات؛ وإنه ليتعين علينا جميعًا أن نفعل الشيء نفسه، ولكنا لا ننجح في ذلك النجاح المطلوب، فإننا نظل إلى آخر أيامنا وفي نفوسنا أثر من آثار تركيز الطفل في الذات، بل لقد يتضح في البعض هذا الأثر واضحًا جليًا، فإذا هو يغضب أو يشكو، أو يثور أو يفعل غير هذا مما لا يفعله إلا الطفل. وليس ثمة نجاح لا يتطلب علاقة وثيقة بين الفرد وبين الناس، وما دام الأمر كذلك، فسوف تطرأ ظروف يصبح فيها من الأهمية بمكان كبير أن نرى أنفسنا وعلاقتنا بالمحيطين بنا في وضوح وجلاء، وكل منا يمر به الوقت الذي يتعين عليه أن يحدد موقفه قائلًا: ها أنذا، وهذا عملي، وهؤلاء هم الذين أرجو أن أعاونهم وأن آمرهم بعملي". وفي وسع الخيال أن يضعنا في الموقف الذي يمكننا من رؤية أنفسنا مجردة، ومن

النظر إلى علاقتنا بالناس نظرة موضوعية، ومن تحليل دقائق الموقف وتفاصيله، ومن تقييم ما فرغنا من تحقيقه وإنجازه.

والبالغ الطفلي نفسيًا لا يسعه أن يرى نفسه على حقيقتها، ولا أن يقيم ما يصنعه أو ما ينجزه، مجردًا من المبالغة في الكبرياء، أو متحررًا من الخوف والإقلال من قدر نفسه، ومن ثم فهو ليس في موقف يمكنه من معرفة مدى مساهمة ما يصنعه في تقدم الدنيا التي يعيش فيها، وهو معتمد دائمًا في تقييم ما يعمله أو ما تحققه على أقوال الناس، أصدقاء كانوا أو غرباء. وهو حتى عندئذ محير، مبلبل الخاطر، فهو لا يعير ما يسمع إلا أذنًا موزعة الاهتمام، فالقسط الأكبر من اهتمامه متجه إلى داخل نفسه، إلى آماله ورغباته التي يدور فيها في حلقة مفرغة، وهو لا ينتفع بنصح ولا بنقد، ولا هو يسعه أن يدرك في النصح خطأ إذا كان به خطأ، أو يستبين في النقد تفاهة إن كانت به تفاهة، فإذا ما تطلع –بعين خياله– إلى نفسه أولًا، ثم إلى العمل الذي يريد حقًا أن يؤديه، ثم إلى (الجمهور) الذي يرغب في اجتلاب تحبيذه واستحسانه، ثم عمد إلى إيجاد الصلة بين هذه كلها بعضها ببعض، وسعه أن يصون شجاعته من التبدد، وذهنه من البلبلة، وتقديره لعمله من البخس.

وثمة خطأ، بل خطر، في أن نربط بين أنفسنا وبين العمل الذي نؤديه لمدة طويلة. وقد علمنا ما كشف عنه العلم الحديث في الأعوام الأخيرة أن ثمة مثل هذا الخطر في ربط أنفسنا بأطفالنا لمدة طويلة، إذ يصبحون عندئذ عاجزين عن المضي في الحياة معتمدين على أنفسهم، فالأم التي تتعلق

بابنها البالغ (أو حتى المراهق) تتعذب معه ومن أجله، وتقرر له قراراته، وتلاقي الهوان بسببه، ولا يسعها أن تقر في حياتها وتهدأ ما لم يكن يعيش المعيشة التي رسمتها له في ذهنها، وتتدخل في شؤونه، وتملي عليه المهنة التي يزاولها، والصحبة التي يصاحبها. مثل هذه الأم، لم يعد ينظر إليها اليوم كما كان ينظر إليها من قبل على أنها أم راشدة رؤوم.

وبرغم أنه قل منا –نحن البالغين– من يتصرف دائمًا تصرفًا طابعه الحكمة والحصافة، فإن قلة منا ولا شك هي التي تحبذ ارتباطنا بآبائنا وأمهاتنا كارتباط الأطفال.

لقد تعلمنا الآن أن مهمتنا كآباء أو أمهات لا تعني إلا أن نزود أبناءنا بالصفات التي تمكنهم من حياة سعيدة صحيحة رشيدة، وأن نمتنع عن تقييدهم بالقيود التي تعوق نشاطهم المستقل، وأن ندعهم أحرارًا في اختيار أصدقائهم وإصدار حكمهم على الأمور، بل تعلمنا أكثر من هذا أن كل بالغ، والدًا كان أو ابنًا، ينبغي أن تكون له مصالحه الخاصة، وأن هذه المصالح هي الكفيلة برده عن التدخل غير المشروع في حياة الآخرين، ولا يعتقد أحد أن هذه العلاقة القائمة على الوعي والفهم بين الأب وابنه، التي حلت محل السلطة الديكتاتورية التي كان يتمتع بها الأب سابقًا، وإن كان باطنها الرحمة، أقول إنه لا يعتقد أحد أن هذه العلاقة قد قللت شيئًا من الحب السائد بين الآباء والأبناء، إن لم يكن العكس هو الصحيح.

ثمة وجه شبه كبير وثيق بين العمل الذي تنتجه أو تبدعه وبين الطفل، كلاهما يحمل ويولد ويغدق عليه الحب، ويباشر بالتغذية في مراحله الأولى،

وينظر إليه المرء نظرته إلى جزء من ذات نفسه، ولكنه متى كبر ونما وترعرع، فقد حان الوقت الذي ينبغي أن يستقل كل بنفسه أو بشخصيته. ولو أننا شئنا أن نحصل من الحياة على أقصى متعها لوجب أن نتعلم كيف ننتقل من عمل إلى آخر ومن مهنة إلى أخرى. فهنالك يكون إنتاج المرء أوفر، ومساهمته أكبر، فإن إنتاجنا لا يبلغ إلا نصف مداه إذا لم نتعلم كيف نفصل بين أنفسنا وبين ما صنعنا، وكيف نوجه طاقة نشاطنا إلى ما يجثم في الأفق من أعمال، بل نحن ميالون دائمًا إلى أن نتوقف لنرقب ثمار ما فرغنا من إنجازه مؤخرًا، وهذا التوقف ضرورة لا بد منها إلى حد ما. فنحن في حاجة إلى أن نلم بتاريخ ما صنعنا وبقيمته وبثمرته، لا لشيء إلا لنفيد خبرة وتعمقًا ونفاذ بصر، ولكن (الوفرة) هي الطابع الذي ينبغي أن يطبع كل عمل في أي ميدان من ميادين الحياة.

نحن إذن –كما أسلفت– ميالون إلى أن ننتج شيئًا واحدًا، أو لونًا واحدًا ثم نتوقف لنتأمله، أو لنتأمل ما يحدث له، حتى لينتابنا العجب إذا رأينا غيرنا لا يفعل ما نفعل، بل يمضي قدمًا من عمل إلى آخر. وقد نحسب –خطأ– أن هؤلاء يسوقون أنفسهم إلى العمل سوقًا، باذلين في ذلك جهدًا، وواجدين فيه عناء، ولكن هذا ليس صحيحًا أو لا ينبغي أن يكون صحيحًا، وإنما الذي حدث أن الوقت والجهد والاهتمام التي ينفقها بعض الناس في التوقف لتأمل ما صنعوا، أو لتلقي عبارات الاستحسان، أو لسماع التعليقات والتعقيبات، إنما ينفقها البعض الآخر في المضي قدمًا فاتحين للعمل ميادين جديدة. وليس يعني هذا أن الرجل المنتج يصم أذنيه عن النقد، كلا، ولكنه يسمع من النقد أوجهه وأحصفه، فقد تعلم بالتجربة أن ما ينفع ويجدي لا يملك

المرء إلا أن يسمعه، ولكنه تعلم أيضًا ألا (ينتظر) ليسمع تعليقًا، ومن ثم فحياته أكثر امتلاء من حياة أولئك الذين لم يتعلموا متى يدعون إنتاج تفكيرهم وعملهم، أو يدعون أبناءهم وأطفالهم أحرارًا مستقلين. وفي وسع الخيال أن يقرب إلى أذهاننا الطريقة التي يتبعها أمثال هؤلاء المنتجين وأن يبين لنا سبل محاكاتهم.

الفصل العاشر

مبادئ وقواعد

ماذا لو كنت ممن لا بد لهم من التشجيع والتحفيذ في كل مرحلة من مراحل العمل قبل الانتقال إلى الأخرى؟ إن هذا يصعب الأمر ولا شك، ولكن في وسع الخيال هنا أيضًا أن يخف لنجدتك، في وسعه أن يطلع على موقفك من سلسلة المراحل التي ينبغي أن تمر بها قبل الحصول على النتائج التي تشتهيها، وأن يعلمك الصبر في الوقت الذي يوضع فيه عملك موضع الاعتبار من الآخرين، ورباطة الجأش حتى يصدر الناس حكمهم عليك، فإذا كان الحكم في غير مصلحتك –كما يحدث أحيانًا– فأمامك عندئذ أحد أمرين: إما أن تواجه المشكلة نفسها من زاوية أخرى لكي تصل إلى نتائج أفضل، وإما أن تسوق الأسباب التي تدعوك إلى الاعتقاد بأن ما صنعته هو خير ما يمكن أن يصنع، وأن تسوق هذه الأسباب موضوعية مجردة لا على سبيل الدفاع عما صنعت وحسب.

وخير طريقة تدافع بها عن صلاحية عملك إذا احتاج الأمر أن ترسم لنفسك مقدمًا مجموعة من المبادىء والقواعد لكل عمل تقبل عليه، أما لو أنك صنعت العمل أولًا ثم رسمت هذه المبادئ والقواعد، فستجد نفسك مسوقًا إلى اختلاق أسباب تبرر بها عملك، وقد يغيب عنك عندئذ بعدها عن الرجحان.

وهنا أيضًا نجد الخيال خير معوان، فإذا شرعت في تخيل أفضل نموذج ممكن للعمل الذي توشك أن تقدم عليه، فكيف تتخيله، وكيف يمكن أن يكون؟

استحضر في ذهنك خير نموذج ماثل فعلًا لعمل شبيه بما تقدم عليه، وانظر ما هي الصفات التي يتصف بها، وأيها الصفات الأساسية التي لا بد منها، وأيها التي أضافها مبدع العمل الأول.فإذا فرغت من هذا التحليل، فارسم القواعد التي تسير عليها أنت، بادئًا بوضع ما لا غناء عنه أولًا، ثم ما يجعل العمل أكثر رونقًا، وأسهل تقبلًا، وأخيرًا وليس آخرًا، الأشياء التي تضيفها أنت للعمل نابعة من ذات نفسك، معبرة عن شخصيتك.

وينبغي قبل أن تشرع في العمل، أن تتخلى عن وجهة نظرك الشخصية، وأن تنظر إلى العمل من وجهة نظر جمهورك، أي (المستهلكين) الحقيقيين، فمن هو جمهورك؟ وإذا وضعت نفسك موضع فرد من هذا الجمهور، فما الذي تود أن تراه وتلمسه في العمل الذي يقدم لك؟ فإذا وسعك –مستعينًا بالخيال– أن تضع نفسك موضع جمهورك الذي ترجو أن تحقق نجاحك عن طريقه، استطعت أن تضمن لعملك دائمًا المميزات التي تجعله مفضلا مرغوبًا.

وخذ مثلًا قريبًا منا جميعًا، لماذا ترى جرت العادة فيما مضى على صنع مواقد الطهو و(طشوت) الغسيل منخفضة قليلة الارتفاع، واستمر صنعها على هذا النحو برغم العناء الذي كانت تسببه لربة البيت التي كانت تضطر للانحناء عليها؟

لم يكن لذلك من سبب سوى قصور الخيال! وفي اللحظة التي ألهم فيها صانغ هذه الأدوات أن يجعل راحة مستهلكي أدواته نصب عينيه، حدثت ثورة في أدوات المطبخ. إن مثل هذه التحسينات تلفت نظرنا لأول وهلة، فإذا نحن نقبل جميعًا على شرائها؛ لا بدافع مخالفة الشائع المألوف، ولكن لأن محاسنها ومنافعها ظاهرة جلية للعيان. ولن تجد إنسانًا يدخل أمثال هذه التحسينات المحببة إلا أن يكون متخذًا من الخيال معوانًا في عمله، جاعلًا من دأبه تحليل (الشكل) التقليدي إلى عناصره الأولية، قادرًا على أن يضع نفسه موضع جمهوره.

على أن توخيك إرضاء جمهورك لا يجب أن يطغى على ما عداه من العوامل في سعيك لرسم النموذج الذي تنسج على منواله في عملك، فإذا جعلت نصب عينيك إرضاء الجمهور وحسب، فقل أن يكون لعملك قيمة، فلا بد أن تكون لك فكرة تنقلها إلى الناس، ورسالة تحققها بينهم، وإنما تصيب النجاح حقًا إذا انطوت فكرتك عن النجاح على تقدير لما يرغب فيه الناس ويريدونه، وعندئذ فكل ما تتعلمه، عن طريق الخيال –عن جمهورك– إنما يكون لمصلحتك وفائدتك، فإذا وقفت على مشاربهم وأذواقهم، وسعك أن تمنحهم لا ما يرغبونه ويريدونه وإنما أفضل منه بكثير. فإذا ما انتهيت من تقدير هذه العوامل كلها، وألقيت ضوءًا كافيًا على المثال الذي تنسج على منواله في عملك قبل الشروع فيه، فإنك ينبغي أن تعيد نظرك فيه، بأن توجه لنفسك بضعة أسئلة لا بد منها، كهذه:

– هل ما صنعته يضارع أفضل عمل مماثل؟

– هل يتصف العمل بجميع الصفات الأساسية؟

– هل أضفت إليه، على سبيل المساهمة في التحسين قيمة خاصة؟

– هل يبدو جذابًا ملائمًا لجمهوره؟

– هل أدخلت في اعتباري أنه ربما كان هناك جمهور آخر هذا العمل غير جمهوره المعروف، فعملت على اجتذابه؟

– ماذا يمكن أيضًا أن أضيفه أو أزيده قبل أن أخرجه ليشق طريقه بين الناس؟

وحبذا لو أنك اتخذت هذه الأسئلة مقياسًا لا لعمل تبدعه وتنتجه وحسب، بل مقياسًا لكل عمل تؤديه في حياتك اليومية أيضًا.

وإذا كنت صاحب عمل ترجو له النجاح، ففي وسع الخيال أن يعينك في ناحية أخرى، بأن يطلعك على حقيقة صلاتك بمن هم حولك. فإذا اطلعت على حقيقة هذه الصلات، وسعك أن ترسم لنفسك مبادئ تجنبك كثيرًا من مواضع الزلل، وعديدًا من أسباب السخط والعناء في عملك اليومي.

أتراك شاهدت نفسك يومًا في مرآة مرتفعة أظهرتك كما أظهرت كل من يجلس حولك؟ تلك هي الصورة التي نريد أن تتمثلها في خيالك، لنفسك ولمن حولك جميعًا. فعندئذ تتبين ما تفعله وما لا تفعله، أو ما لا تفعله على الوجه الأكمل، أو ما يجب أن تفعله لتغدو صلاتك بالناس على خير ما يمكن

أن تكون عليه.

وكل أولئك الذين يعتقدون أنهم مرهقون بالعمل، إنما هم في الواقع يعملون أقل مما يسعهم أن يفعلوا، إذا وسعهم أن يتبينوا في خيالهم ما الذي يتوقع منهم. وإنما يتأتى الإرهاق من الانشغال بعشرات التفاصيل التافهة، أو من القلق واللهفة، خشية أن يظن أنهم لا يتعاونوا فيما يجب أن يفعلوا، فإذا هم تبدو عليهم مظاهر الإنهاك والانفعال، وإن كانوا في الواقع لا ينجزون إلا القليل.

ومثل هؤلاء -وأقصد مثلهم فرائس بين مخالب إرادة الفشل- أولئك الذين يدأبون على الاضطلاع بأكثر مما يطيقون، وإن كانوا على نقيض سابقيهم، لا يشكون إرهاقًا.

هؤلاء في الأغلب يسعون بذلك إلى تغذية غرورهم وإحساسهم بذواتهم، وإنه لشيء جميل حقًا أن يبسط المرء نشاطه إلى آخر مداه -وهو شيء لا يبلغه الأكثرون- ولكنه حمق وجنون، بل قتل للنفس وانتحار أن يتجاوز المرء أقصى طاقته.

فإذا حددت في خيالك عملك، ودورك وميدانك، سواء بوصفك فردًا أو عضوًا في جماعة، فاشرع في العمل على الفور، وخذ نفسك بالنظام والمران حتى يبلغ نشاطك أقصاه.

الفصل الحادي عشر

اثنا عشر تمرينًا

ثمة وسائل عديدة يمكننا بها أن نكسب العقل حدة ومرونة في آن معًا، وهما صفتان لازمتان لكل من يتطلع إلى النجاح. ونحن جميعًا نمتثل في يسر وسهولة للروتين الذي ييسر لنا أن ننجز عملنا بأقل قدر ممكن من الجهد، وبأقل قسط ممكن من الاهتمام الواعي، وهو شيء لا غبار عليه البتة، إذا كنا نستغل وقت الفراغ الذي يتيحه لنا (الروتين) في أغراض نافعة مثمرة، ولكن الحقيقة الواقعة أننا لا نفعل! بل نحن نطبق الروتين والتكرار على جوانب حياتنا جميعًا، فإذا نحن نشب جامدة عقولنا وأرواحنا، قليل حظنا من التجربة، ما دمنا مسوقين بالعادة ولا شيء غيرها. ونحن ندع للعادة أن تتولى أمر نشاطنا اليومي، وتؤدي أعمالنا، مستخدمين جزءًا وحسب من العقل، دربناه ليعالج مشكلات محددة معينة (وقد دربناه في الأغلب مكرهين ساخطين) فإذا جدت لنا فكرة جديدة، أو طرأ لنا موقف لا عهد لنا به، رحنا نتلمس أوجه الشبه بينه وبين ما سبقه، ثم شرعنا نتصرف وفق الإحساس أو العاطفة التي يبتعثها هذا الشبه. بل حتى أولئك الذين يبتغون رفع مستوى أذهانهم، أو تقويم أنفسهم، قل أن يستخدموا أكثر من مجموعة واحدة من العضلات الذهنية، إذ يجمعون عددًا من الحقائق عن هذا الموضوع أو ذاك، وقد يعتبرون أنهم أصابوا مستوى رفيعًا إذا عرفوا شيئًا عن أديان الهند، أو أعمال "تشارلز ديكنز" أو طيور

أمريكا.

ولا ضرر في أن يلم المرء بهذه المعلومات على سبيل رفع مستواه، ولكن الضرر في أن يستكين لهذا الذي صنعه على اعتبار أنه نهاية المطاف، فجمع المعلومات وجه واحد وحسب من أوجه النشاط الذهني، وإذا اقترن بتدريب الذهن على إصدار حكم صادق مستخلص مما جمع من معلومات، فهو وجه نافع قيم ولا شك، ولكن هذا وحده لا يدرب العقل إلى الحد الأقصى، ولا يجعل منه أداة طبيعية نافعة تسعف وقت الحاجة.

وحتى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم غاية في الجد والاجتهاد، لم يبلغوا بدورهم –في الأغلب– المستوى الذهني الذي يتيح لهم أن يستخلصوا أقصى المتعة من الحياة. ومن أسباب ذلك ما أورده الدكتور ألكسيس كاريل في كتابه الرائع "الإنسان ذلك المجهول" إذ قال: "إن ثمار المدنية ليست ثمارًا مفردة كل منها قائمة بذاتها، ولكنها متصلة ببعضها، متداخلة في بعضها، مثال ذلك أنه لم يعد يتعين علينا أن نعاني من شدة الحر ومن شدة البرد في قوتنا، فيتوفر الطعام مرة ويشح أخرى، ولم يعد يفرض علينا أن نقضي الليل في الظلام، فضوء الكهرباء أصبح يحيل الليل نهارًا، ولم يعد حتمًا علينا أن ننظر بداخل أنفسنا بقصد التسلية والترفيه، فالصحف وأجهزة الراديو تقوم على تسليتنا وإمتاعنا. والرجل السليم الصحيح يستمتع بمقدرة عظيمة على التكيف والملاءمة، وإنه ليبدو أن تدريب وظيفة التكيف لتؤدي عملها على أتم وجه أمر لا غناء عنه، إذا شاء الإنسان أن يستمتع من الحياة بأوفر ثمارها. ولكننا أذنا لأنفسنا بأن

تضعف وتتراخى، وأن تتخلى عن إمكانياتها ومقدراتها، وأن تفر من المسؤولية كلما أمكن، فعلنا ذلك بدلًا من أن ندرب أنفسنا على تحقيق ما هي خليقة بتحقيقه، حتى غدت كلمة (تدريب) وحدها كافية لبث الخوف في نفوسنا.

وتدريب العقل يبلغ به أوج الكمال، كما يبلغ جسم الرياضي أوج الكمال بالتدريب المستمر، ولكننا أولًا يجب أن نقف على حالة الذهن قبل الشروع في تدريبه، فكنتيجة لذلك نعلم احتياجاته، فلعله محتاج إلى القوة في هذا الجزء وإلى المرونة في ذلك، إلى الانطلاق في هذا الموضع وإلى الدقة في ذاك. ونحن نريد أن نكمل نقصه، وننمي وظائفه إلى الحد الذي يمكننا من الإفادة منه إلى الدرجة القصوى.

ولكي نفعل هذا لا بد من سيطرة نفرضها على أنفسنا، وهو أمر يصعب ولا شك على أبناء هذا الجيل الذين أضعفهم امتثالهم لوسائل الراحة وأسباب التراخي الكثيرة المتنوعة، وإنك لتجد أكثرنا يرتعد لمجرد كلمة (الكبح) أو (المنع) أو (السيطرة)، فقد اعتدنا أن نعيش مدفوعين بالعادة والإحساس، معتبرين أن هذه هي الحرية، في حين أن الحرية –كما قال أرسطو– هي: "الخضوع لما يفرضه المرء على نفسه من قواعد ومبادئ"، وهو قول يصدق الآن كما صدق منذ ألفي عام مضت. وإذن ينبغي لنا أن نعمل على بث القوة في حياتنا، بحيث يصبح في مقدورنا أن نكف عن وجه من أوجه النشاط لننتقل إلى وجه آخر، وبحيث يسهل علينا أن نغير متى شئنا الوسيلة التي نواجه بها مشكلاتنا، وأن نغير الجهد الذي

ننفقه في أعمالنا فنزيده أو نقلله كيف شئنا، وينبغي أن نفعل ذلك كله في حنكة ودراية ومهارة، كتلك التي يبديها لاعب التنس البارع ليواجه بها خطط خصمه العنيد.

ولو أننا كنا نعرف –يومًا بعد يوم– الضرورات أو الأعمال الأساسية التي ينبغي أن ننجزها، لوسعنا أن نعد لها أنفسنا سلفًا، ولما كانت ثمة حاجة لقوة ولا لمرونة تتصف بها عقولنا، ولكن الأمر ليس كذلك، ومن ثم كان لزامًا أن نعد أنفسنا لكل احتمال ولكل طارئ، عوضًا عن مجرد مواجهة أمر أو أمرين ألفنا أن نواجه مثلهما، ولم تعد تستدعي مواجهتهما عناء، ثم نتخبط في سائر الأمور كالأعمى الذي يتلمس الطريق.

والتدريبات التي اقترحها فيما يلي قد استقيتها من كافة أنحاء العالم، فقراء الفلسفة والأديان سيجدون في التدريبات شيئًا صادفهم في قراءاتهم من قبل، شيئًا أزجاه الحكماء في عديد من بلاد الأرض، فثمة تدريبات مستقاة من الهند، ومن إسبانيا، ومن اليونان، ومن الصين، وبعضها مألوف في كل بلد له تراث ذهني أو روحي، كالتدرب على فترة من الصمت مثلًا.

وليس في هذه التدريبات شيء غير هادف، فكل منها يستهدف تقوية وظيفة من وظائف العقل ينبغي أن تنمى إلى الحد الأقصى، إذا كان المرء ينشد أن يحيا حياة هادئة يوجه دفتها هو نفسه.

وقد لا تفيد هذه التدريبات كلها كل الناس على السواء، ولكني أنصحك، قبل أن تنتبذ أحدها على اعتبار أنه لا فائدة منه لك، أن تختبر

نفسك لتتحقق من أنك لا تنتبذه لمجرد أنه يكبح نزوعًا لا قبل لك بكبحه، وقد تجد أكثرها صعب التطبيق في إحدى المراحل، تمامًا كالصعوبة التي تتجلى في تصلب عضلة من عضلات الجسم متى أقبل المرء على تدريب هذه العضلة، ولكنك لا تنمي العضلة مع ذلك ما لم تخضعها لنوع من أنواع المقاومة، ولا تدرك أن تدريبك يؤتي ثمرته ما لم تحس الصعوبة والألم أحيانًا، فذاك خير دليل على أن التدريب يمضي لتحقيق غايته. والحال كذلك في التدريبات الذهنية، فإذا أحسست أن أحدها لا يثير فيك احتجاجًا؛ نتيجة لانحرافك عن العادة إلى لون جديد من ألوان النشاط، فأنت إذن في غير حاجة لهذا التدريب، ولك عندئذ أن تستبدل به آخر يفرض عليك نوعًا من الجهد وقوة الاحتمال.

التمرينات الاثنا عشر:

-١-

يتلخص التمرين الأول في أن تقضي ساعة من يومك لا تقول فيها شيئًا إلا أن تجيب على سؤال وجه إليك مباشرة.

وعليك أن تباشر هذا التمرين وسط مجتمعك المعتاد، وخلال حياتك العادية اليومية دون أن توحي لمن حولك بأنك مكتئب مستغرق في خواطرك، أو أنك قد ألم بك صداع.

فوجه البراعة التي تظهرها في هذا التمرين أن تبدو كما تبدو كل يوم، وتتصرف كما تتصرف كل يوم، ولكنك تسيطر على لسانك خلال هذه

الفترة المحدودة.

فإذا سئلت فأجب على قدر السؤال، لا تبتر الإجابة، ولا تستطرد إلى ما يتفرع عليها، ولا تحاول أن تستدر بإجابتك سؤالًا آخر. ولسوف يجد أكثر الناس –لفرط عجبهم– أنه تمرين شاق! ولسوف يبدو هكذا حتى للمقتصدين في القول بطبعهم، فنحن جميعًا ميالون إلى الانسياق وراء الكلام إذا ما التقينا بصديق لا لهدف إلا تأكيد صداقتنا ومودتنا.

ولهذا التمرين قيمة كبيرة، وله ثمار مجدية في أكثر الأحيان، وإن اختلفت شكلًا؛ بل لعله لم يخرج اثنان مارسا هذا التمرين برد فعل متشابه؛ فرد الفعل مختلف باختلاف طبيعة الأشخاص ومزاجهم. على أن أكثر ممارسي هذا التمرين سيلمسون لأول وهلة –وهم في صمتهم– أننا –نحن المتكلمين– قل أن نقول ما نعني في أول عبارة نفوه بها، ثم نفطن إلى ذلك ما نراه مرتسمًا على وجوه من نحدثهم من تعبير، فنحاول مرة أخرى، ونصمت لحظة، نقلب فيها الأمر في أذهاننا، ثم نصدر عبارة أخرى أوضح من سالفتها، ولكن ما قلناه في أول الأمر ولابسه الغموض يظل ماثلًا في أذهان محدثينا، يطبع المعني بطابع يشوبه الإبهام.

وقد حدثني رجل جرب هذا التمرين أنه لاح له في أول صمته كأنه ليس موجودًا، ثم أعقب ذلك إحساسه بأنه –وهو في صمته– يملأ جو المكان ويشرف عليه إشراف المحايد المجرد، وكان قبلًا إذا تكلم أحس أنه في مركز الدائرة، فلما صمت أحس أنه خارجها، وحين كانت تنتهي فترة صمته كان يحس أنه في مركز الدائرة أحيانًا، وعلى حدودها أحيانًا،

وخارجها إطلاقًا أحيانا أخرى.

وحدثني آخر بأنه حين بدأ أصدقاؤه يحسون منه الصمت سلكوا معه مسلكًا غريبًا، فقد انتاب اثنين منهم شعور بالقلق وعدم الاستقرار، أولهما اشتط في هذا الشعور حتى وضح عليه جليًا، والآخر تحول شعوره إلى عداء سافر، حتى إنهم وصفوا صديقهم الصامت بأنه متكبر، متعالٍ. وكان معهما صديق ثالث انغمس في الكلام والثرثرة انغماسًا شديدًا، كأنما ليحفظ التوازن ويعوض عن صمت صاحبه!

وحدثتني امرأة بأنها لم تحرز نجاحًا في حياتها قدر ما أحرزت حين جلست في (شلة) من صديقاتها صامتة تبتسم، فقد كان صمتها هذا أشبه بمغناطيس جذب إليها اهتمامًا لم يكن تجذبه ثرثرتها، على أن كل من جربوا هذا التمرين اتفقوا في شيء واحد، ذلك أنه حين انتهت فترة الصمت أحسوا إحساسًا بالسطوة والمقدرة يملأ نفوسهم، فلما عادوا إلى الكلام، عادوا إليه وهم أوضح ما يكونون عبارة، وأقرب ما يكونون إلى الهدف، وأكثر ما يكونون اطمئنانًا إلى أن في ميسورهم أن يعودوا إلى الصمت متى شاؤوا!، وقد أفضت إلي صديقة جربت هذا التمرين، بأنها وسعها في خلال صمتها أن تفهم سر قول (ميرديث) :"إن أشد ما نخشاه من الله صمته لا غضبه".

-٢-

تعلم أن تحصر تفكيرك مدى نصف ساعة من كل يوم في موضوع واحد. وبرغم السهولة التي قد تلوح على هذا التمرين، إلا أنه كسابقه صعب التنفيذ، و أفضل ما يفعله المبتدئ أن يتدرج في الوقت الذي ينفقه في التفكير بادئًا بخمس دقائق كل يوم، ومنتهيًا إلى نصف الساعة على أنه يجب أن يسبق ذلك تفكير فيما تختار من أشياء أو موضوعات تصب عليها تفكيرك. وأي شيء يفي بالغرض، زهرة، زجاجة حبر، وشاح مما تضعه النساء على أكتافهن، ولا تجعل هذا الشيء أمام عينيك، وإنما تمثله في ذهنك حتى تكاد تراه أمام بصرك، فإذا كان ما اخترته زهرة، فصفها لنفسك كما تحسها كل حاسة من حواسك، فإذا فرغت من هذا، فاستطرد إلى كيفية نموها ومكانه، وإلى أي الأشياء ترمز، وإلى أوجه استخدامها، ثم انتقل من هذه الأشياء المادية الملموسة إلى أشياء عقلية معنوية.

وصب تمريناتك في أول الأمر على أشياء تروق لك، ثم تدرج من هذا إلى أن تضع أصبعك حيثما اتفق على كلمة في صحيفة أو كتاب وتجعل هذه الكلمة موضوع تفكيرك، أو إن لم يكن للكلمة معنى، فالعبارة التي تضمنت الكلمة.

وإنه ليكون أجدى عليك أن تبدأ هذا التمرين ومعك ورقة وقلم؛ كي تخط على الورقة علامة كلما آنست من تفكيرك انزلاقًا عن الموضوع الذي صببته عليه، ولو أنك تسرع إلى ملاحظة انزلاق تفكيرك، لألفيت في نهاية الفترة المحدودة أن الورقة ملأى بالعلامات، على الأقل في الأيام الأولى لممارستك التمرين، ولكنك ستلمس أيضًا أنك تمضي نحو التقدم بخطى حثيثة، وقد تبلغ

الذروة أحيانًا بعد أسبوع، وأحيانًا بعد شهر.

وأحسب أن قيمة هذا التمرين واضحة متجلية لكل من يأمل في أن يعمل عملًا أصيلًا مبتكرًا. ومن الأحصف أن تزاول هذا التمرين -في مبدأ الأمر- وأنت مختلٍ بنفسك، فإذا تقدمت فيه، ففي ميسورك أن تمارسه حتى وأنت وسط جمع من الناس، أو وأنت في الطريق عائد إلى بيتك.

ولعلك أدركت من هذا التمرين أنه يستهدف التركيز الذهني الذي طالما حثتنا المدرسة على تربيته في نفوسنا. ولعلك وقد شرعت في هذا التمرين، تدرك أن المدرسة لم تفلح في حملنا على ذلك؛ ولهذا التمرين فوائد جمة، فالذي يبرع فيه يسعه أن يتعلم لغة أجنبية في أمد قصير، كما يسعه أن يفكر تفكيرًا متزنًا مركزًا، ويخلص إلى النتائج مبكرًا.

-٣-

حاول أن تكتب خطابًا خاليًا من ضمير المتكلم (أنا) في أي شكل من أشكاله اللغوية، واجتهد برغم ذلك أن تجعل الخطاب رقيقًا جذابًا، فإذا رأى متلقي الخطاب فيه غرابة، فقد أخفقت في هذا التمرين.

ويهدف هذا التدريب إلى أن يطلعنا على حقيقة أنفسنا، ويحملنا على أن نراها من زاوية محايدة. ولكي تكتب خطابًا جذابًا من هذا النوع ينبغي أن تتجه بتفكيرك إلى خارج نفسك، وأن تتحرر من شؤونك ومشاغلك لفترة، فذلك يحفزك إلى العودة إلى نفسك مرة أخرى أملًا بالانتعاش.

-٤-

اخلِ حديثك مدة خمس عشرة دقيقة كل يوم من ضمير المتكلم (أنا)، وكل ما هو منسوب إليه.

-٥-

اكتب خطابًا مطبوعًا بطابع النجاح والتفوق، وغير مسموح لك في هذا التمرين أن تتجاوز الحقيقة، أو أن تنتحل شخصية الناجح، وإنما اتجه بذهنك إلى المظاهر وأوجه النشاط التي نجحت فيها حقًا، واجعلها محور خطابك، في دقة وأمانة، وضمن خطابك ما يشتم منه أنك في لحظة كتابته لا تحس شيئًا من إثباط العزيمة أو اليأس أو خيبة الأمل.

وثمة هدفان يستهدفهما هذا التمرين، أولهما أنه من الميسور أن يتحول المرء من الجانب السلبي اليائس إلى الجانب الإنشائي المتفائل.

وبرغم ما قد يبدو لك في أول الأمر أنه من العسير أن تجد من أوجه تفوقك ونجاحك ما تضمنه خطابك، فسوف تكتشف عاجلًا أن ثمة عددًا من شؤونك يمضي على ما يرام وفي الاتجاه الصحيح، ولكنك تجاهلتها زمنًا حين ركزت بصرك على أوجه الإخفاق ومباعث اليأس والخيبة.

والهدف الثاني وهو الأهم، أنك بإرسال هذا الخطاب إلى كل من تعرف سوف تزيل عقبة كأداء تقف دونك والتصرف الناجح الذي تزمع الإقبال عليه. ونحن جميعًا ميالون إلى أن نعمد إلى كتابة الخطابات في أحلك

ساعاتنا، إذا أحسسنا الوحدة أو الوحشة بحثنا عن أقلامنا وشرعنا ندبج رسائل لأعزائنا نبثهم فيها همومنا وشكاوانا، وأوجه شقوتنا وإخفاقنا، طمعًا في أن يرسلوا إلينا بدورهم ما يعزي ويواسي. وقد تصلنا خطابات المؤاساة ونحن في قمة الروح المعنوية، ولكن حتى هناك، ليس من يسعه أن يغالب إحساسه بالحسرة على نفسه وهو يقرأ التعزية.

ومن ثم فنحن خليقون في أكثر الأحيان بأن ننزلق بدافع هذه الحسرة إلى سابق مشاعرنا السلبية المثبطة للعزائم، وتسير الأمور عندئذ في حلقة مغرقة، فترسل إلى الراسلين نبئهم مزيدًا من الشكوى، ونجلس في انتظار المزيد من عزائهم. وعطلة كاملة من الاكتئاب والتحسر على النفس ضرورة لا بد منها للنجاح.

-٦-

قبل أن تدلف إلى غرفة تضم عددًا من الناس، توقف لحظة على عتبتها لتحدد صلتك بكل شخص فيها.

فمن هذا التمرين يسعك أن تتعلم درسا قيمًا، ذلك أن تحيط بكل من في الغرفة بنظرة واحدة، فتتمثل في ذهنك التزاماتك حيال كل منهم، وأوجه المصلحة التي قد تعود عليك من أيهم أو بعضهم، والعلاقة التي تربطك بكل منهم.

وعسى أن يقول قائل أن مثل هذا التفكير السابق قد يحدو بالمرء إلى أن يغدو صناعيًا متكلفًا في تصرفاته مع من تضمهم الغرفة، ولكن هذا

الخطر ينتفي إذا أدركت من نظرتك المناسبة التي جمعت هؤلاء، فأنت خليق عندئذ أن تتصرف بوحي هذه المناسبة، بل إنك بذلك تزيل خطر اندفاعك إلى الغرفة، فتأتي بتصرف لا يليق بالمناسبة، كأن تتطرق إلى موضوع لا يتفق معها، أو تخطئ التحدث إلى صديق قد يعود الحديث معه عليك بفائدة.

وصحيح أننا مهما نختط حياتنا اختطاطًا واعيًا، فهناك دائمًا (هامش) كافٍ يقينا من خطر افتقاد البديهة إذا جد جديد، أو طرأت مفاجأة، ولكن خيرًا من ذلك أن نجعل حياتنا كلها في قبضة سيطرتنا إلى أقصى حد ممكن.

-٧-

فإذا حذقت التمرين السابق فانتقل إلى آخر، طالما تناهى إلينا على شكل نصيحة قديمة موغلة في القدم، تلك هي: دع شخصًا تعرفت إليه فورًا يتحدث عن نفسه دون أن يفطن إلى أنك تحمله على هذا أو تدفعه إليه.

وسوف يقتضيك هذا أن تكون كيسًا لبقًا في فتح الموضوع، سواء بكلمة مجاملة، أو بتوجيه سؤال يستدرجه إلى الحديث عن نفسه. والبراعة هنا أن توجه المجاملة أو السؤال بحيث لا يستلزم جوابا مبتسرًا، بل يقتضي الإفاضة والإسهاب.

ولسوف ترى عندما يشرع الصديق الجديد في الحديث أنك تحس بانجذاب إليه، فإذا كنت عطوفًا خصب الخيال، فسوف تحس أنك

مستغرق في حديثه استغراقًا تامًا، ولا تشعر إلا وقد سقطت عنك آخر آثار الشعور بالذات، وقد لا يدعو الصديق الجديد بدوره إلى الحديث عن نفسك، ولكن ذلك لن يهمك، فقد اتسع بحديثه أفقك، واكتسبت به معرفة جديدة عما تصنعه الدنيا بالناس، فإذا طلب إليك أن تتحدث عن نفسك فسوف تدرك عندئذ إلى أي مدى تتحدث، وعم تتحدث، وقد ألممت من حديث صديقك بميوله ومشاربه.

-٨-

ثم إليك عكس التمرين السابق، ولعله أكثر منه مشقة، ووجه المشقة هنا هو أنك تأتيه عامدًا: تحدث عن نفسك، وعن ميولك واتجاهاتك دون أن تشكو أو تتفاخر، وإن أمكن فدون أن تصيب محدثك بالسأم! ومن ثم ينبغي أن تثير شوق المستمع إليك إلى تتبع حديثك.

وسوف يثبت هذا التمرين أنه ذو فائدة كبرى لأولئك الذين اعتادوا الإكثار من الحديث عن أنفسهم، فهو سيجسم لهم المحنة، التي يواجهون بها أصدقاءهم في كل مناسبة، ففي خلال هذا الحديث العامد المنصب على النفس، سوف تتجلى للمتحدث كل علامات الملل، ونفاد الصبر، والرغبة في الانتقال إلى موضوع آخر، وهي العلامات التي يحس بها الطرف الآخر، ويفوت علينا إدراكها في غمرة استغراقنا في الحديث عن أنفسنا، ولن يملك المرء بعد مرتين أو ثلاث يزاول فيها هذا التمرين إلا أن يخلي بينه وبين التمرين، كما يخلي بينه وبين نقطة ضعفه.

على أن لهذا التمرين فوائد أخرى، فسرعان ما يتضح للمرء أن الحديث عن التوافه والأمور الشائعة المألوفة، والحوادث المتكررة في حياته يفضي إلى بث الملل في نفس السامع، في حين أنه لو تطرق إلى تجارب أصيلة، أو عمل جديد مستحدث، أو أمر يحرك الخيال، فإنه على النقيض يجتذب اهتمام السامع وشوقه إلى تتبع حديثه. وربما يستخلص المرء من هذا أن يجعل دأبه توسيع ميدان تجاربه، والإقدام على أعمال تتسم بالأصالة والحداثة، وإعمال خياله فيها يطرأ له في حياته اليومية من أمور، وربما ينتهي المرء من هذا التمرين إلى نبذ الحديث المعاد المألوف عن آخر تطورات مرضه، أو عن (شقاوة) أطفاله، أو عن ذكاء كلبه المدلل، أو عن أحدث أنباء سوء الحظ الذي مني به، فإذا جمعتك المناسبة بشخص ما زال عبدًا في حوزة هذا الضرب الممل من الحديث، فمتى جاء دورك في الكلام، فاعرض موضوعًا يتسم بالعمق والأصالة، فإذا آنست منه عزوفًا عن الخوض في هذا الموضوع فالأمر إليك، وأنت الذي ينبغي أن تقرر ما تفعله حيال هذا الشخص.

وقد تكتشف أن بين أصدقائك من قربتهم إليك، لا لشيء إلا لتنغمس معهم في الحديث عن التوافه بين الحين والآخر، ولا شيء سوى هذا، ومن ثم فانسحابك من مثل هذه الرابطة، ورفضك تبديد طاقتك ووقتك سدى، دون أن تؤذي مشاعر الطرف الآخر، التزام يقع على عاتقك، فإذا كنت أنت الذي نشد هذه الصداقة في لحظة ضعف، فمن واجبك أن تحاول تحويل هذه الصداقة وجهة أكثر إيجابية وأقوى رابطة، فإذا أخفقت كل جهودك في هذا السبيل، فأنت في حل من نبذ هذه الصداقة التافهة.

-٩-

إذا كنت معتادًا على (لازمة) معوقة من لوازم الحديث الشائعة، كتكرار كلمة (أقصد) أو (الحقيقة)، أو (هل أخذت بالك) أو (هل أنت فاهم)، أو ما إليها من (اللوازم) الشائعة في التعبير، فإن إزالة هذه (اللازمة) يحتاج إلى معين، ابحث عن صديق مقرب إليك لا تستشعر حرجًا في التحدث إليه بأي شيء، وقل له إنك تكثر من استخدام (لازمة) أو أكثر من لوازم التعبير، واطلب معاونته في الخلاص منها.

وكل ما يفعله هذا الصديق أن يحضر معك حديثًا إلى شخص آخر، ويشير إليك إشارة خفية كلما جرى لسانك باللازمة، وقد يتعثر مجرى حديثك عندئذ، وقد لا تتمالك نفسك من الضحك، ولكنك على مر المحاولة ستزداد سيطرة عليه (لازمتك)، اللهم إلا أن تكون مستمسكًا بها.

-١٠-

اختط لنفسك برنامجًا يستغرق ساعتين من ساعات يوم معين، وامضِ خلال هاتين الساعتين وفق البرنامج بدقة، فإذا كنت أنت المتحكم في عملك، فاختر أي يوم يحلو لك، وإذا كنت ذا عمل نظامي، فاختر يوم عطلتك لمزاولة هذا التمرين، وتوخَّ في البرنامج أن يكون جزءًا منه مما جرت عليك عادتك، والجزء الآخر مخالف لما جرت به عادتك، كما يلى مثلا:

من ٧:٣٠ – ٨ صباحًا الإفطار

من ٨ – ٨:٢٠ صباحًا قراءة الصحف

ثم من ٨:٢٠ – ٩:٢٥ ترتيب الكتب أو الصور التي تقتنيها

ومن ٩:٢٥ – ٩:٣٠ القيام بمكالمة تليفونية طال

تأجيلك لها، أو الخروج للنزهة

وليس المهم في هذا التمرين أن تعقد بنود البرنامج أو تكثر منها، ولكن المهم أن تتحول من بند إلى الذي يليه في الدقيقة التي حددتها بالضبط، فإذا كنت مثلًا لم تتم قراءة الصحيفة في الموعد، فذاك أمر يؤسف له، ولكنك ينبغي أن تنحيها متى جاء وقت تنحيتها، وكذلك الحال في سائر بنود البرنامج، لا ينبغي أن يستغرق أحدها أكثر من الوقت الذي رصدته له، ولو لم تكن قد أنجزته. على أنه ينبغي أن يكون واحد من بنود البرنامج على الأقل، مما يلذ لك ويصادف من نفسك هوى. ويستهدف هذا التمرين هدفين: الأول أن نشعر أنفسنا أننا مقيدون بأوامر، والثاني أن ندرك كم نسيء استخدام الزمن أو نفقد الإحساس به كلما هممنا بصنع شيء.

ثم ينبغي –لكي نصيب الثمرة المرجوة من هذا التمرين– أن نتدرج من ساعتين إلى ثلاثة، ثم إلى أربعة، حتى ننتهي أخيرًا إلى أن نختط لأنفسنا برنامجًا يملأ ثماني ساعات من اليوم – على الأقل– بالعمل المثمر. وقد يميل البعض إلى وضع برنامج لليوم بأكمله، ولكننا لا نرى أن في الإمكان التقيد بمثل هذا البرنامج، ومن ثم فمن العبث اختطاطه، يكفي يوم أو يومان من كل أسبوع نقضي معظمها وفق برنامج معين؛ لكي نتعلم قيمة

الوقت وما يمكن أن نصنعه فيه إذا لم نبدده هباء.

وفي تبديد بعض الناس الوقت هباء، يقول العالم النفسي الدكتور (بول باوزفيلد): "إن من علامات الشخص المركز في ذاته أنه لا يستطيع أن يحدد كم من الوقت يستلزمه عمل معين، فهو يعتقد أن الدنيا تدور في فلكه، وأنه يتمتع بقوة سحرية كفيلة بإرجاع الشمس والقمر عن دورانها، ثم يمضي في الحياة متعجبًا كيف لا يلتقي به الوقت في منتصف الطريق. إنه دائما متأخر عن مواعيده، متخلف في تنفيذ تبعاته والتزاماته، يقبل من الأعمال أكثر مما يقدر على أدائه، ويوافق على دعوات لا يتسنى له تلبيتها، وهو إما أن يدرك خطأه ويعمل على تلافيه أو ينتهي نهاية سيئة.

-١١-

ولعل هذا أصعب التمرينات جميعًا، وأعلم أن الكثيرين سيعزفون حتى عن مجرد محاولته، وهو اختياري، والقيمة المستفادة منه تقوم على أنه اختياري لا جبر فيه ولا قسر، على أن المرء لو كان راغبًا صادق الرغبة في أن يعيش حياة أحفل وأملأ، وأخضع لسيطرته وإرادته، فلا شك عندي أنه سيقبل عليه، وسيجتني منه فوق الفائدة المرجوة متعة ومسلاة.

وأحسب أن أكثر من يفيدهم هذا التمرين، أولئك الذين يعيشون في وحدة أو فيما يشبهها، أو يعيشون حياة خالية من الأوامر والقيود، وقيمة هذا التمرين بالنسبة لهم أنه يخرجهم عن سياق الحياة المعتادة التي يعيشونها، ويعلمهم ألا يكونوا أسرى في قبضة عاداتهم.

استحضر اثنتي عشرة قصاصة من الورق، واكتب على كل منها أمرًا

معينًا، توخّ فيه الصعوبة والخروج عن مألوف عادتك، كهذه الأوامر:

– اذهب بعيدًا عن البيت مقدار عشرين ميلًا، مستقلًا وسيلة عادية من وسائل المواصلات.

– اقض اثنتي عشرة ساعة بغير طعام.

- اقض الليل كله ساهرًا منهمكًا في عمل.

ولعل هذا الأمر الأخير أكثر الأوامر قيمة، فإذا اتبعته وجب أن تنفذه بحذافيره، فلا تمتثل لإغراء النوم، ولكن أرح ظهرك لحظات في مجلسك عقب كل ساعة تقضيها في العمل، ولسوف تدرك –إذا خضت هذه التجربة– أي عمق يتصف به العقل، وأية مقدرة يمتاز بها على العمل دون كلل، وبأية سهولة نمتثل لإغراء التعب كلما لمسنا إحدى بوادره.

ثم ضع كل قصاصة في مظروف مقفل، و(فنط) هذه المظاريف كما (تفنط) ورق اللعب، وألقها في أحد أدراج مكتبك، واختر يومًا معلومًا كل أسبوعين أو كل شهر، تعمد فيه إلى التقاط واحد من هذه المظاريف، فتفضة وتعمل وفق الأمر الذي أصدرته لنفسك فيه.

وقد يكون الأمر أمرًا بالخروج والابتعاد مسافة طويلة عن منزلك، وقد يكون المطر في الخارج شديدًا، فما لم تكن في حال صحية لا تسمح في الخروج مثل هذا الظرف، فنفذ الأمر بحذافيره، فذاك يعود على شخصيتك بقيمة لا تقدر.

وراعِ أن تقسم الأوامر بطابع الصعوبة والخروج عن مألوف العادة،

ففي ذلك تكمن قيمة التمرين. أعرف شابًا كان يعاني الخجل، ألزم نفسه بأن يخاطب ثلاثة من الغرباء كل يوم، ولك أن تقدر الفائدة التي عاد بها عليه هذا التمرين.

وبديل من التمرين السالف –إن شق عليك– هذا التمرين، وحبذا لو جمعت بينهما: خصص يومًا تقبل فيه كل دعوة (معقولة) تدعوك إلى نقيض ما جرت به عادتك.

فإن كنت مثلًا من أنصار الاعتكاف في البيت، فاقبل كل دعوة للخروج، أو كنت مسرفًا في حضور الحفلات والمنتديات فارفض في ذلك اليوم كل دعوة للخروج، وأنفق الوقت الذي تقضيه في البيت، على غير مألوف عادتك، في سبيل إنشائي كالقراءة أو الكتابة.

ولسوف تستخلص من هذا التمرين فائدة كبرى، إذ يطلعك على مزايا الأوجه المناقضة لأوجه نشاطك اليومية المعتادة، والتي لم يسبق لك خبرة بها، فضلًا عن أنه يربي إرادتك، ويقوي احتمالك لما لم تتعوده من الأمور.

وابتدع لنفسك على ضوء هذا الهدف تمرينات أخرى تناسب حالتك. وثمة خطوتان نحو ابتداع مثل هذه التمرينات: الأولى أن تتجه بذهنك إلى نقطة من نقط ضعفك أو قلة خبرتك. والثانية أن تقرر الوسيلة التي تقلل بها الضعف أو تزيد الخبرة، كما في حالة التمرين الذي تقدم للسيطرة على الثرثرة والإسراف في الكلام.ومتى اعتدت هذه التمرينات ولاءمت بين نفسك وبينها، فسوف تجد أنها ممتعة مسلية إلى جانب فائدتها، وأنها تحل رويدًا محل أوجه عقيمة للنشاط كنت تقدم عليها،

وتستنفد فيها من الجهد ما تستنفده في هذه التمرينات.

على أنك ينبغي وأنت تنشد تقديم نفسك، وتزويدها بأسباب القوة والمقدرة، أن تفتق لنفسك من التدريبات أشقها وأكثرها دهاء، حتى إذا وسعك أن تحقق هذه التدريبات كان إحساسك بالنصر أعظم وأقوى، فإذا فرغت من هذه التدريبات ألفيت لك ذخيرة وافرة من الصفات والمقدرات الذهنية يسعك أن تركن إليها كلما احتاج الأمر.

ولكنك حين تشرع في اجتناء المتعة من ممارسة هذه التمرينات، ينبغي أن تذكر نفسك أن هذه التدريبات (وسائل) وليست أهدافًا في حد ذاتها. وأما أنت فما زلت في دور التحضير والاستعداد، شأنك شأن الرياضي الذي يقبل على تنمية جسمه وعضلاته، فيتناول من الوجبات ما هو مناسب، ويسير على قدميه المسافة المناسبة، ويمارس من التمرينات الرياضية ما هو مناسب، ويتعرض للشمس والهواء وقتًا مناسبًا، ولكنك تزيد على مثل هذا الرياضي كثيرًا، فهو ينمي جسمه وعضلاته كهدف في حد ذاته وليس وسيلة لهدف، اللهم إلا أن يكون يكسب عيشه من قوة بدنه، ولكنك أنت تكتسب قوة الذهن، وقوة الإرادة، وتكتسب خبرة وحنكة ومقدرة؛ لكي تستخدمها في حياة أنجح وأرضى.

وننتقل بعد ذلك إلى وجه آخر من أوجه تقويم أنفسنا، يتصل اتصالًا مباشرة بما نعانيه من نقص ونقط ضعف، ويعمد إليها محاولًا تلافيها أو الحد منها.

لقد كان "بنجامين فرانكلين" يحمل في جيبه دائمًا دفترًا صغيرًا،

ضمنه قائمة مؤلفة من ثلاث عشرة صفة من الصفات المحببة، أو الفضائل التي يجب أن يتصف بها، وتحت كل صفة كتب كلمة تقرب معناها إليه فمثلا تحت صفة (الاعتدال) كتب: "لا تقلل من الطعام إلى حد الحرمان ولا تسرف في الشراب إلى حد النشوة". وتحت صفة (الصمت) كتب: "لا تتحدث إلا بما ينفع الناس أو ينفعك". وكذلك فعل بما تضمنته القائمة من صفات (النظام) و(التصميم) و(الشجاعة) وما إليها. ثم إنه كل يوم يشير في دفتره هذا بإشارة أمام كل صفة يبذل في يومه ذاك جهدًا لاكتسابها.

وأنت تستطيع أن تصنع مثله، على أنه يكفيك أن تضمن قائمتك ست صفات في اكتسابها مشقة، وتعاني من افتقادها أكبر العناء. ولنفترض على سبيل المثال، أنك قررت أن النقائص التي تشكوها هي: أنك لا تنجز من عملك ما ينبغي، وأنك خجول، وأنك متردد في اتخاذ القرارات، وأنك ثرثار مسرف في الكلام (ولعل الخجل والثرثرة من أشيع النقائص وأعمها)، وأنك غير منتظم في وجباتك أو غير معتنٍ بها، أو أنك تقضي في النوم أكثر أو أقل ما ينبغي، فعلى ذلك ينبغي أن تبدو قائمتك كما يلي:

	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة
العمل							
الشجاعة							
التصميم							
الكلام							
الوجبات							
النوم							

والإشارات التي تراها في خانة (يوم السبت) تشير إلى عدد المرات التي قاومت فيها بنجاح كل إغراء دعاك إلى التصرف بطريقة خطأ، أو الانزلاق إلى سابق عادتك.

فإذا رأيت بعد مضي فترة من الزمن أنه لا يمر يوم دون أن تحفل كل خانة بإشارة، فأنت إذن قد وضعت قدميك في الطريق الصحيح نحو إزالة النقائص التي تشكوها، واكتساب نقائضها من الصفات الحميدة، وعندئذ فتخير ست نقائص أخرى، وكرر التجربة نفسها.

وقياسًا على التجربة السابقة، يسعك أن تتيح لنفسك مزيدًا من التجارب، تستهدف تخليصك مما تشكوه من نقائص أو أوجه ضعف.

إذا كنت حين تستيقظ مثلًا تميل إلى البقاء فترة أطول في الفراش لغير ما هدف ولا نهاية، فثبت في غرفة نومك لافتة بحيث يقع عليها نظرك أول ما تستيقظ في الصباح، واكتب عليها: "انهض من الفراش حالًا"، فهكذا كانت تفعل الكاتبة الروائية "كاثرين مانسفيلد".

أو إذا كانت الذاكرة تخونك فتسقط من حسابها التفاصيل، فافعل كما كان أحد رجال الأعمال يفعل، كان وهو في البيت يذكر شيئًا متعلقًا بعمله فيكتب به مذكرة على (كارت بوستال) ويرسله بعنوانه على مكتبه. وكان وهو في مكتبه بذكر شيئًا متعلقًا ببيته، فيكتب به مذكرة يرسلها بالبريد على عنوانه بالبيت.

ومكافأة نفسك على نجاحك –فضلًا عن النجاح نفسه، وهو خير

مكافأة– وسيلة أخرى من وسائل الحفز على متابعة النجاح.

كأن تبتاع لنفسك هدية مما يدخل في باب الكماليات، كلما نظرت إلى دفترك فوجدته حافلًا بالإشارات التي تدل على نجاحك في التغلب على نقيصة أو نقطة ضعف.

واجعل من دأبك أن تكون صديقًا لنفسك وحازمًا معها في الوقت نفسه، إذا أحسنت صنعة أو اكتسبت فضيلة، أو أحرزت نجاحًا، فأجزل لنفسك الاستحسان، بل كافئ نفسك بالهدايا إذا شئت، وإذا قصرت فليس من الحزم أن تصب عليها اللوم والتعنيف، بل أن تسد عليها مسالك أي إغراء يدعوها إلى الارتداد لنقيصة أو لنقطة ضعف.

ونحن ميالون إلى الإسراف في لوم النفس أحيانًا، بل نحن نتخذ هذا اللوم بديلًا عن عمل كان يجب أن نعمله، ونكتفي باللوم تبريرًا لقعودنا عن العمل. ثم إن اللوم لا يصلح خطأ، بل لعله يكون أدعى إلى تثبيط العزم عن إعادة الكرة والمحاولة.

الفصل الثاني عشر

أطيب التمنيات

دعنا في هذه الخاتمة نلخص ما فصلناه:

أول ما تتسلح به لبلوغ النجاح أن تتصرف كما لو كان الفشل مستحيلًا.

وحين تبدأ في وضع هذه العقيدة موضع التنفيذ، تكتشف أنك في حاجة لأن تدخر أقصى ما يمكنك من الطاقة أو المجهود الذي يتبدد هباء في الأحلام والأوهام، أو يكرس لقتل الوقت على غير طائل وبغير هدف،وأن توجه هذا المجهود ليخدم غرضًا ويحقق هدفًا.

وتجد أيضًا أنك في حاجة لأن تتجاهل ذكرياتك السابقة عن الفشل، وما عساه يساورك من خوف الفشل، وذلك بأن ترفض تعليق اهتمامك بالمضايقات الوقتية أو بالألم السالف، وتمتنع عن إحساسك بالحرمان، مما يفسح المجال لنكسة أو لنكوص.

وعلى طول الطريق نحو الهدف تدرب ذهنك، وتتعهد بالرعاية ملكاتك ومقدراتك بحيث تضعها تحت سيطرتك، وتجعلها رهن إشارتك، حتى إذا آن أوان استخدامها، استخدمتها كخبير محنك.

وسوف يلعب الخيال دورًا مهمًا في تحقيق نجاحك، ففي نطاقه ترتاد آفاق حياتك، وتفتق آمالًا ورغبات، وأهدافًا لمستقبلك، ولكن ثمة فارقًا بين هذا الخيال وبين الخواطر أو أحلام اليقظة، فأنت بالخيال تهيئ جوًا ذهنيًا متحررًا من الشكوك والمخاوف وأسباب القلق، فمتى تهيأ لك هذا الجو عمدت إلى العمل.

وفي الفصول القليلة الأخيرة من هذا الكتاب، ناقشنا أوجه النشاط المفضي للنجاح وجهًا بعد وجه، ولكنا لم نعمد في المناقشة إلى التحليل أو إلى الشمول، وإنما أخذنا هذه الأوجه فعرضناها (عرضًا بطيئًا)، كما تعرض (السينما) أحيانًا مرحلة من مراحل مباراة في كرة القدم أو في (التنس) عرضًا بطيئًا، يصور تفاصيل هذه المرحلة المعينة التي كللت بالنجاح، ثم إذا أعادت (السينما) عرض هذه المرحلة ضمن المباراة بالسرعة العادية، أوشكت ألا تتبين التفاصيل، ولم تستبن إلا الهدف أو الإصابة التي صفق لها الجمهور.

وعرضنا لأوجه النشاط الناجح هذا العرض البطيء لا يعني بالطبع أن تبطئ أنت بدورك، وإنما أردنا به أن تلم بفن إصابة الهدف، وأن تحكم التدرب على إصابته، فإذا تيسر لك هذا نزلت إلى الميدان وخضت المباراة، ورحت تسدد رمياتك إلى الهدف بالسرعة التي تقتضيها المباراة. فإذا انتهيت من مرحلة التدرب والدراسة والاستعداد، التي تقتضي بطئًا في بداية الأمر إلى السرعة العادية التي يقتضيها العمل، فأنت إذن في الطريق الصحيح، وأنت إذن خليق بأن تصيب النجاح.

ولست أحاول أن أحثك على الإسراع على حساب استعدادك وتدربك، بل لست أحثك على الإسراع في حد ذاته، حتى مع التدرب والاستعداد، وإنما أحثك على أن تدرك السرعة العادية التي يقتضيها عمل معين، فلا إبطاء ولا إسراف في الإسراع. وقد يكفيك معوانًا على قياس هذه السرعة أن تدرك أن كل خطوة ثابتة إلى الأمام في سير نظامي رتيب، إنما هي خطوة نحو النجاح ولا شك.

وأحب هنا أن أشير إلى نوع من أنواع النجاح، لعل لكل منا خبرة شخصية به، أو له على الأقل صلة بمن له خبرة به، ذلك هو النجاح القائم على شجاعة اليأس، وفي أكثر الأحيان تتأتى هذه الشجاعة الفائقة حين تتوالى على الرجل نكبات تمحو كل بديل من النجاح. وقد نصف الرجل عندئذ بقولنا: "إنه لم يعد له ما يفقده!"، وهنالك يمضي الرجل بخطى جريئة، وبإصرار شديد، وبعزم لا يخالجه وهن في سبيل النجاح، ويتحقق لهذا الرجل –الذي تعين عليه أن ينجح– نجاحًا ساحقًا عريضًا. ولو أنك تذكر المثل الثالث من أمثلة ضحايا إرادة الفشل، لرأيت أن صاحبنا لم يكن ينجح إلا حين يستبد به اليأس، وإن كان هو الذي خلق اليأس لنفسه، فإذا بلغ شفا الجرف ولم يعد أمامه إلا أحد احتمالين: إما السقوط إلى الحضيض، وإما القفز فوق الهاوية، إذا به يثب وثبة جريئة مظفرة، لقد كان عندئذ فقط يتصرف كما لو كان مستحيلًا أن يفشل.

ولو خلا تصرف هذا الرجل من الحماقة التي كان يرتكبها في كل مرة، إذ يستدرج نفسه إلى شفا الهاوية ثم يثب، أو يدعو الفشل إلى ساحته

ليحفزه على مضاعفة الجهد لو خلا تصرفه من هذه الحماقة، إذن لتجلى له طريق النجاح ومقتضياته واضحة جلية.

فاليأس يقضي على احتمال الفشل ويقصيه من الذهن، ولكن في وسعنا أن نقضي على هذا الاحتمال ونقصيه عن أذهاننا دون أن نمتثل لليأس، في وسعنا أن نفعل هذا مستعينين بالخيال، وهنالك يمحى الفشل، وتبقى الشجاعة التي تسدد خطانا في طريق النجاح.

والشجاعة المتجهة الوجهة الصحيحة هي مبنى النجاح ومضمونه، وهي تقتضي أن نخوض التجارب مسلحين بالمرونة تارة، وبالكبح تارة أخرى، وأن نحسن استغلال إمكانياتنا ومقدراتنا، وأن نرد أنفسنا عن الانزلاق إلى الخواطر والأحلام، وعن اجتناب المسؤوليات، وعن التصرفات الصبيانية التي يعوزها النضج.

وأحسب أن النجاح في رأي كل راشد حصيف مساوٍ لبذل أقصى ما يستطيع من جهد، أما ما هو الحد الأقصى لهذا الجهد، فذلك ما نستكشفه حين نحرر أنفسنا تمامًا من إرادة الفشل.

الفهرس